مقصد إصلاح العالم في القرآن الكريم

فريدة حايد*

الملخص

يهدف البحث إلى بيان حقيقة الإصلاح وأسسه في القرآن الكريم بوصفه أهم المقاصد الشرعية وأعظمها؛ فالإصلاح –بما يعني من دفع للفساد، وإحلال للنفع– مقصد قطعي قرآني هدفه حفظ نظام العالم، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو الإنسان. وقد أشار البحث إلى أن أساس الإصلاح الإنساني هو إصلاح التفكير الذي يقود إلى إصلاح الأعمال التي لها أثرها في بناء الحضارة والعمران.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، إصلاح، مقاصد، نظام العالم.

Reform of the World Order as a Qur'anic Intent.

Farida Hayed

Abstract

This paper addresses the nature of reform and its foundations in the Gracious Qur'an, as reform is considered the most important and legitimate intent. Reform (*Islah*), i.,e. achieve the good and prevent corruption, is a definite Qur'anic intent, to preserve the World order and maintain its good quality through the good quality of Man, the vicegerent.

The paper concludes that the basis of Man's reform is the reform of his thinking that leads to reform of his endeavor to build civilization and development.

Keywords: Gracious Qur'an; Reform; Intents; World order.

* دكتوراه في الفقه وأصوله، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠١٧م، أستاذ محاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة جيجل– الجزائر. البريد الإلكتروني: faridahaid@yahoo.fr

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٦/١٠/١٥م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/١٥م.

مقدمة:

جاءت تعاليم الإسلام عموماً والقرآن الكريم خاصةً بالتقويم والإصلاح لحالة المجتمع الذي كان سائداً، وحالة الإنسان المهيمن عليه؛ ما يؤكد قيام دعوة القرآن على الإصلاح الشامل لمختلف جوانب الحياة الدينية والدنيوية، حتى غدا مقصداً له؛ بغية إنشاء نظام جديد يقوم على أسس التعاون والرحمة، ويعنى بإصلاح الإنسان وتهيئته لأداء مهامه. ولهذا كانت أهم مقاصد القرآن إصلاح الإنسان، وتقويم فكره ومعتقده وسلوكه، ثم إصلاح مجتمعه بتقويم فكره الجماعي وقيمه، فجاء الإصلاح القرآني شاملاً متكاملاً، مُلاحَظاً فيه الجانب الروحي، وجانب الواقعية، جامعاً بين المادة والروح بهدف تأسيس نظام صالح لكل الإنسانية، والبقاع الأرضية.

وقد قام الإصلاح القرآني على الإصلاح العقدي لإيجاد مناخ فكري تنطلق منه الإصلاحات الفردية والجماعية، فبدأ بإصلاح العقيدة والروح، ثم تدرَّج في إصلاح السلوك والنظم الاجتماعية، وتجلَّى في إنجازاته، فاهتم بإصلاح الأسرة ونظامها، والمعاملات المالية، وسائر الحاجات الإنسانية، مُمثِّلاً مقصداً ذاتياً له تجلياته في الحياة، وغير مفصول عنها، فكان من مقاصد الإسلام عامةً ومقاصد القرآن خاصةً تطهير العقائد، وإصلاح الأخلاق، وتشريع العبادات الصحيحة، وبيان الطيبات من الرزق والمتاع، وتنظيم المعاملات، فيما يمكن تسميته مقصد إصلاح العالم؛ فقد تجلَّى ذلك في كثير من آياته وأحكامه، ما جعلني أروم جمع هذه الآيات والتأصيلات الواردة فيه ليكون التأصيل قوياً مُعزَّزاً بالحجج والأدلة، ولعل بحثي هذا (مقصد إصلاح العالم في القرآن الكريم) يُسهِم في تأصيل مقاصد القرآن بوجه عام.

ويمكن إجمال أهمية البحث والهدف منه فيما يأتي:

١. الوقوف على أساس الإصلاح في القرآن الكريم.

٢. الإسهام في وضع قواعد إصلاحية نابعة من القرآن الكريم.

٣. الإسهام في البناء الحضاري للأُمة اعتماداً على التفسير الصحيح لبعض مقاصد القرآن، ووضع تطبيقات عملية لها.

٤. الدعوة إلى الاجتهاد والعمل في ضوء تعاليم القرآن الكريم؛ سعياً لرفعة الأُمة الإسلامية وتقدمها.

واقتضت طبيعة الموضوع توظيف المنهج الاستقرائي أولاً لمعرفة آيات الإصلاح ودلالاتها، ومعرفة أقوال العلماء في ضوئها، ثم استخدام المنهج التحليلي لبيان مقصود الإصلاح في القرآن الكريم وتجلياته المعاصرة.

أولاً: حقيقة مقصد الإصلاح وأهميته في القرآن الكريم

وردت لفظة "الإصلاح" في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة وسياقات مختلفة، أدَّت إلى اختلاف المعنى المقصود. وفيما يأتي دلالتها في اللغة والاصطلاح تمهيداً للتعريف بدلالتها في القرآن الكريم:

١. تعريف الإصلاح لغةً:

الإصلاح، ومنه الصلاح، مأخوذ من الفعل صلح ضد فسد، وأصلح ضد أفسد. والصلاح ضد الفساد، ومنه صِلحٌ (بالكسر)، وصالح، وصليح. وأصلحت إلى الغير: أحسنت إليهم.[١] والصُّلح (بالضم): السلم، ومنه المصلحة أيضاً، وهي واحدة المصالح. واستصلح نقيض استفسد،[٢] وصلح الشيء إذا كان نافعاً أو مناسباً.[٣]

فالإصلاح لغةً: إحلال الصلاح والنفع والخير في النفس أو الغير، فيصبح الشيء نافعاً أو مفيداً.

---

[١] الفراهيدي، الخليل بن أحمد. **كتاب العين**، تحقيق وترتيب: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مج٢، ص٤٠٦.

[٢] الفيروزآبادي، مجد الدين. **القاموس المحيط**، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٣م، باب: الحاء، فصل: الصاد، ص٢٠٨-٢٠٩.

[٣] مجمع اللغة العربية. **المعجم الوسيط**، إخراج: إبراهيم مصطفى وآخرون، تركيا: د.ن، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج١، ص٥٢٠.

٢. تعريف الإصلاح اصطلاحاً:

قد يكون المعنى اللغوي أصدق تعبير عن المعنى الاصطلاحي؛ فالإصلاح بوجه عام هو نقيض الإفساد. وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وهو المعنى الذي وقف عنده الكثير من المفسرين؛ لأنه أجمع لمعاني الإصلاح على اختلاف مجالاته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ (البقرة: ١١-١٢). قال ابن عاشور في معرض تفسير هاتين الآيتين: "الإصلاح ضد الإفساد؛ أي جعل الشيء صالحاً، والصلاح ضد الفساد. يقال: صلح بعد أن كان فاسداً، ويقال: صلح بمعنى وجد من أول وهلة صالحاً."[٤] أمَّا الإفساد فعرَّفه قائلاً: "الإفساد فعل ما به الفساد؛ أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض، والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملاً على مضرة وإن لم يكن فيه نفع من قبل... والإفساد في الأرض تصيير الأشياء الصالحة مضرة كالغش في الأطعمة، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالقتل والحرق للبريء، ومنه إفساد الأنظمة بالجور، ومنه إفساد المساعي بتكثير الجهل وتعليم الدعارة وتحسين الكفر... ."[٥]

وأمَّا الإصلاح بخصوصية مجالاته فتُعرِّفه عبارات كثيرة تدل على خصوصية المقصود؛ فقد عُرِّف الإصلاح في موسوعة السياسة مثلاً بأنه: "تعديل أو تطوير غير جذري في شكل الحكم، أو العلاقات الاجتماعية دون المساس بأسسها"[٦] [وهو بهذا المعنى السياسي مخالف للثورة التي تعني إصلاحاً جذرياً بإصلاح الأسس. أمَّا الإصلاح فهو ليس سوى تحسين في النظام السياسي والاجتماعي القائم من دون المساس بأسس النظام].[٧] فهو في نظر السياسة يقتصر على إجراء تعديلات وتغييرات في نظام ما (قد يكون نظاماً سياسياً، أو زراعياً، أو دينياً) لتحسينه... وأمَّا في مجال الاقتصاد فهو في مجمله: "مجموع السياسات التصحيحية التدرُّجية التي تتبناها دولة ما لمعالجة التشوهات

[٤] ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٨٥.

[٥] المرجع السابق، ص٢٨٤-٢٨٥.

[٦] الكمالي، عبد الوهاب وآخرون. **موسوعة السياسة**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت، ج١، ص٢٠٦-٢٠٧.

[٧] المرجع السابق، ص٢٠٧.

والاختلالات الهيكلية في الاقتصاد، عبر إحداث تغييرات جوهرية في أساليب تعبئة الموارد وتوزيعها وإدارة الإنفاق، ... بغية تحقيق الاستقرار والنمو الاقتصادي،"[٨] وهو يشمل التغيير الجذري وغير الجذري.

وأمَّا معناه الاجتماعي فيشير إلى "الحركة العامة التي تحاول القضاء على المساوئ التي تنشأ من خَلَل في وظائف النسق الاجتماعي، أو أي جانب منه. وهذا يعني التغيير إلى الأحسن، وتحقيق التقدُّم، وتحديث المجتمع."[٩] فهو يهدف عموماً إلى تخفيف مساوئ النظام الاجتماعي، وتصحيح الأوضاع الفاسدة؛ وذلك عن طريق تعديل بعض النظم الاجتماعية، من دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير البناء الأساسي للمجتمع.[١٠] ويبدو هذا التصور أشبه بمبدأ من مبادئ الإسلام، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع المجالات.

وبوجه عام، فإن مفهوم "الإصلاح" يعني التغيير والتقويم والتطوير وإزالة الفساد حتى يعم الخير والفلاح؛ أي –كما قال ابن عاشور– جعل الشيء صالحاً بعد أن كان فاسداً، فيما يبدو أنه قد خالف الموسوعة السياسية في جعل الصلاح تغييراً وتعديلاً من دون تغيير جذري، غير أن الإصلاح في التغيير الجذري قد يكون بتغيير الأسس الفاسدة، واستبدال أسس صالحة نافعة بها، ليتأسس بذلك مقصد الإصلاح ودفع الفساد، وهو ما جاء به القرآن الكريم دستوراً لدين أراده الله تعالى خاتماً للأديان، فشمل الإصلاح غير الجذري، والإصلاح الجذري بالنظر إلى ما كان سائداً من أوضاع، ولذلك يرى الألوسي أنه: "عبارة عن الإتيان بما ينبغي، والاحتراز عمَّا ينبغي."[١١] وعلى هذا، فإن مفهوم "الصلاح" جامع لكل خير، ومانع لكل شر، وبه يتحقق النمو والازدهار والنهضة

[٨] طه، همام. "مفهوم الإصلاح الاقتصادي في الوعي العربي"، مقال في الموقع الإلكتروني: http://thewhatnews.net/post، يوم ٣/١/ ٢٠١٧م.

[٩] باشا، عمر علي. "إصلاح المجتمع.. الأبعاد السياسية والاجتماعية"، مقال في الموقع الإلكتروني: https://omrbasha.wordpress.com، يوم ٣/١/ ٢٠١٧م.

[١٠] زيدان، عبد الكريم. **القيود الواردة على الملكية الفردية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية**، عمّان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٢م، ص٥.

[١١] الألوسي، محمود أبو الفضل. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج٩، ص١٤٥.

للمجتمع، وهو يمثل مفهوم "الإصلاح الشامل" الذي ينشده الإسلام، والذي يتداخل مع معنى التحديث والتجديد والاجتهاد. فالفعل الإصلاحي فعل تحديث وعصرنة[١٢] تتعلق بالإنسان والمجتمع، ويشمل جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية.

ولو أردنا استقراء مادتي "الصلاح" و"الإصلاح" في القرآن الكريم لوجدنا دستوراً شاملاً باسم الإصلاح؛ فقد تعددت الاستعمالات، وتعددت بذلك المعاني، فجاء ذكر الإصلاح العقدي والأسري والإنساني، وجاء القرآن مادحاً الصلاح والإصلاح في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ (المائدة: ٣٩)، وقوله ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأنعام: ٥٤)، وقوله سبحانه في الحسرة على العمل الصالح: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠)، وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ (فاطر: ٣٧)، وقوله في البشارة للمصلحين: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (الأنعام: ٤٨)، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥).

وبالمقابل، فقد حذَّر القرآن الكريم من الفساد والإفساد، ومعلوم مناقضتهما للصلاح والإصلاح كما مرَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ (الشعراء: ١٥٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وبذلك يتضح أن الإصلاح مقصد قرآني جاء تأصيله في القرآن الكريم بالإشارة إلى مجاله تارةً، أو أثره تارةً أخرى؛ ما يُبيِّن أهميته في سُلَّم المقاصد الشرعية. وقد ثبت باستقراء آيات القرآن الكريم، وكذا السُّنة -بما لا يدع مجالاً للشك- أن المقصد العام من التشريع هو: "حفظ نظام الأُمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان."[١٣]

[١٢] بلقزيز، عبد الإله. **الخطاب الإصلاحي في المغرب: تكوين ومصادر**، بيروت: دار المنتخب العربي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١٦.

[١٣] ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص١٩٤.

ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه، قال الله تعالى حكايةً عن شعيب، وتنويهاً به: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (هود: ٨٨)، وقال سبحانه على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ (القصص: ٤)، فعلمنا كما يقول ابن عاشور "أن الله قد ذم فرعون وعمله، وجعله من المفسدين، كما مدح موسى وصنيعه، وجعله من المصلحين، فدل ذلك على أن المراد من الفساد في القرآن ليس الكفر فقط بمعنى جحود الإله ونكرانه، بل هو فساد العمل في الأرض، والدليل ما جاء في آيات أخرى تُبيِّن أن صلاح العمل هو المقصود، وأن صلاح الإيمان دون العمل غير مقصود، فقال عن شعيب وهو يريد إصلاح أهل مدين: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (الأعراف: ٨٥)، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٥)، وقال الله تعالى مخاطباً هذه الأُمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣﴾ (محمد: ٢٢-٢٣)."[١٤]

فهذه آيات بينات تُوضِّح أن مقصود القرآن من إقامة الدين هو الإصلاح، وأنه قَرنَه بالعمل الصالح، ودليل ذلك ما جاء في معرض المَنِّ على الصالحين من عباده في مختلف العصور بأن لهم سيادة هذا العالم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، وكذا استخلاف هذه الأُمة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥)؛ لذا جعله العلماء مقصداً كلياً تعود إليه كل مقاصد الدين الحنيف، وهو مقصد المقاصد كما قال عنه ابن عاشور ضمن عنوان: "المقصد العام من التشريع"؛ إذ

[١٤] المرجع السابق، ص١٩٤.

قال: "فقد انتظم لنا الآن أن المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان، ودفع فساده."[١٥]

فهذه أدلة صريحة كلية تؤكد أن مقصد الشريعة من إقامة الدين وإنزال القرآن هو الإصلاح وإزالة الفساد. ولو أن صلاح هذا العالم غير مقصود للشارع ما امتنّ به على الصالحين من عباده، وكما أن الإصلاح المقصود شرعاً هو الإصلاح المشفوع بالعمل، أو إصلاح العمل أساساً، بما فيه الإصلاح الاعتقادي الذي هو أساس العمل، من دون فصل بين الاعتقاد والعمل، أو كما يظن بعضهم من أن الإصلاح الاعتقادي يغني عن إصلاح العمل، وكما هو عند بعض آخر إصلاح العمل من دون الاعتقاد، وكما أن الإصلاح المقصود شرعاً هو إصلاح الفرد ضمن المجموع، وإصلاح المجموع ليكون في خدمة الفرد، وهذا يدخل في إصلاح العالم كله؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ (البقرة: ٢٠٥) أنبأنا بأن الفساد المُحذَّر منه هو إفساد موجودات هذا العالم.

وهكذا يتبين أن المقصود من إصلاح العالم هو تحقيق المصلحة للناس أجمعين، والحفاظ عليها؛ فكل ما يقيمها هو إصلاح مطلوب، وكل ما يُعوِّقها هو غير مطلوب. "والمصلحة باتفاق العقلاء وجميع الشرائع أمر مطلوب وواجب التحقق في الأحكام، وهي في الإسلام أساس التشريع وركنه الركين."[١٦] ولذلك ارتبط مقصود الإصلاح القرآني ارتباطاً وثيقاً بالمصالح المقصودة شرعاً،[١٧] وانتظم لنا أن المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح، ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان، ودفع فساده، ثم صلاح المجموع الذي يعيش فيه؛ لذا عالج الإسلام صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعه، وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة بإصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكير الإنساني الذي يسوقه إلى التفكير الحق في أحوال هذا العالم، ثم

---

[١٥] ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، الجزائر-تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب، الشركة التونسية للتوزيع، ط٢، د.ت، ص٤٢.

[١٦] أبو زهرة، محمد. **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، الرياض: الدار السعودية للنشر، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٧٣- ٧٤.

[١٧] المرجع السابق، ص٧٣-٧٤.

عالج الإنسان بتزكية نفسه، وتصفية باطنه بالأخلاق التي تعد محرك الإنسان إلى الأعمال الصالحة.[١٨]

ثانياً: مقصد إصلاح العالم بتصحيح العقائد والأخلاق

١. إصلاح العقائد:

نادى القرآن الكريم بإصلاح الفرد أولاً وآخراً، فدعا إلى تحرير أفكاره وعقائده من خرافات الجاهلية وبراثن الوثنية؛ فباستقراء الواقع الجاهلي يتبين لنا فساد الناس في اعتقاداتهم التي جمعت بين الشرك والتقديس للأشخاص، وعبادة الأصنام والأوثان، فكان الإنسان عبداً لصنم يصنعه بيده، وعبداً لإنسان مثله، وقد ثار الإسلام على هذا الوضع بإرسال الرسول ﷺ، وإنزال القرآن المجيد، فكان أول ما صححه، وطالت مدته، إصلاح التفكير الإنساني بتوجيهه التوجيه الصحيح في التقديس، بحيث يتجه بالوحدانية والتقديس إلى إله واحد، له من الصفات ما يفوق صفات آلهتهم ومعبوداتهم. فإصلاح العقيدة في نظر القرآن هو المحرك الأساس لتقبُّل كل صالح ونافع بعده؛ فلا عبودية إلا لله، ولا تفكير صالح إلا في ظل هذه العقيدة، وبذلك ارتقى بالإنسان من عبادة الذوات والمواد إلى عبادة يسمو فيها، ويلوح حركة الروح بحيث تكون ضابطاً لكل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦).

فتحرير الإنسان من الناحية الغيبية والروحية يمثل أول نهضة كانت له في ضوء الإسلام؛ إذ جعل الفرد مسؤولاً أمام الله من دون واسطة، سواء من رجال الدين أو غيرهم، فالكل متساوون أمام الله تعالى، ولا أحد مسؤول عن عمل أحد؛ فالإنسان في علاقته بالله حرٌّ حرية تكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) لا حرية تهديم. "كما هو الشأن في مسألة الحقوق والواجبات في الديمقراطية العصرية، أو الضمانات الاجتماعية والمادية في الفلسفات المعاصرة؛ لأنها قد تكون ناقصة دون تحرير تام من

[١٨] ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٦٤.

عبادة الإنسان لغيره، فقد تتحول هذه الضمانات إلى استعباد أو استغلال."[١٩] وفي هذا الإصلاح القرآني ما يُبيِّن أن أساس قيام الحضارة هو الإنسان نفسه؛ بتكريمه أولاً، وتحريره عقائدياً وفكرياً (عقلاً)، ثم دعوته إلى العمل لقيام حضارة الإنسان لا المادة.

ولتحقيق هذه الأهداف والمقاصد، فقد شرع الله تعالى جملة أحكام تميزت بالوسطية والاعتدال، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥). والحقيقة أنه لو تصفحنا الكتاب العزيز لوجدنا أن المجتمعات البشرية –على مرِّ التاريخ– كانت مصابة بأحد الانحرافين الآتيين:

– الانحراف العقدي: وذلك أن العقائد كانت غالباً مقتبسة من غيرهم دون تدبر.

– الانحراف الفكري: هو انحراف ناتج من الانحراف العقدي؛ لأن التقليد لا يفضي إلى الابتكار والاكتشاف الروحي والمادي.

ولو تصفحنا تاريخنا وواقعنا لتبيَّن أننا لم نُحقِّق تقدماً وازدهاراً وحضارةً إلا في ظل تفوُّقنا العقدي الذي هدانا إلى التفوُّق المادي في العلوم كلها. ولا مانع اليوم من الاختراع والاكتشاف باسم الإسلام واسم العقيدة الإسلامية التي تدل في منتهاها على منتهى سلامة الروح والمادة، في سبيل الله، لا تدميرها وإفنائها بمنتهى الخضوع والاستسلام، و"لذلك جعل القرآن محور خطابه العقدي عقل الإنسان، وغايته من ذلك الدعوة إلى التفكير والحث عليه."[٢٠] فهو يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلى آيات خلقه وسيلة من وسائل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران: ١٩٠).

لقد قامت الحضارة في ظل الإسلام على المنهج العلمي الذي لم ينكره أحد، بل بلغت الحضارة الإنسانية أوجها في العصر الإسلامي الذي ازدان بعشرات ومئات من العلماء الذين ترجموا علوم الحضارات السابقة وأضافوا الكثير من مبتكراتهم؛ إذ منح ظهور الإسلام الفكر العلمي دفعة قوية لكي ينفتح وينتشر ويزيد في معارف الإنسان ورفاهيته،

---

[١٩] عكاشة، شايف. **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٤م، ص٤١–٤٤.

[٢٠] العقاد، عباس محمود. "الفلسفة القرآنية"، **سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن كتاب الهلال**، مصر، عدد٢٢٩، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م، ص١٥–١٦.

فقد كانت أُولى آياته ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (العلق: ١)، ودعت معظمها إلى التفكير في ملكوت السماوات والأرض والكون والكائنات والنبات والحيوان، مُفرِّقةً بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين الذين أوتوا العلم والذين لم يؤتوه... .[٢١] وفي هذا كله دعوة إلى العلم والتقدُّم والازدهار.

ولذلك حُقَّ لنا قول إن القرآن الكريم هو الذي يقود الناس (بفضل تعاليمه) إلى النهضة والرقي الحضاري، وذلك بإعادة بنائه الفكر الذي يؤدي إلى إعادة البناء الحضاري؛ فدعوة القرآن إلى التدبر في الكون مثل دعوته إلى التدبر في القول، وهذا يوجب علينا في هذا العصر ربط القرآن الكريم بوظيفته الحضارية العلمية.[٢٢] وأمَّا مَن قال بغلق باب الاجتهاد فقد عارض دعوة القرآن المتكررة للتدبر والتفكر والتبصر والتعقل والسير في الأرض وسبر أغوار الظواهر المادية استقراءً لقوانينها التي بثها الله فيها في اطراد لا شذوذ.[٢٣]

وإن المتتبع لحال الجزيرة العربية، وما جاء به الإسلام والقرآن، وأثره في إصلاحها، يلحظ صدق الدعوة القرآنية إلى الإصلاح، ويدرك أنها ليست دعوة اعتباطية؛ فقد جمع الإسلام –بوصفه نظاماً إصلاحياً– بين العدل والرحمة، وبين القلب والروح، وبين العلم والعمل،[٢٤] فتقدمت أُممنا في ظله، وارتقت بسلوكها إلى مستوى تقديسه، فكان المسلم مثالاً للرحمة والتسامح والرقي والازدهار، لينهار اليوم في هاوية الضلال والظلم والتخلُّف والدمار.

فعقيدة الإسلام إذن غير منفصلة عن الحياة، وهي إعداد للحياة، وتوجيه لها، ودفع إلى الغايات الكريمة والمقاصد الطيبة النافعة.

---

[٢١] نخبة من العلماء. **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف، ١٩٧٠م، ص٢٠٠-٢٠٤.

[٢٢] التيجاني، عبد القادر. "في فقه الإصلاح الإسلامي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، عدد١٧، صيف ١٩٩٩م، ص١٥-١٨ بتصرف.

[٢٣] عرفان، عبد الحميد فتاح. "الإطار الفكري العام لنظرية المعرفة في القرآن الكريم"، **مجلة إسلامية المعرفة**، عدد١٥، شتاء ١٩٩٩م، ص٨٣.

[٢٤] العقاد، عباس محمود. **الإسلام دعوة عالمية**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٩م، ص١٠٩.

٢. إصلاح الأخلاق:

أكد القرآن الكريم محورية قضية الإنسان فيه، وأنه بصلاحه يصلح غيره، ويقيم دنياه بكل خير ونفع عميم. ولتمام إصلاحه، فقد دعا إلى تنميتها روحياً بوسائل غائية تربط العقيدة الحية بالحياة العملية، وهي قضية الأخلاق الإنسانية، والعبادات الظاهرة والخفية التي تجعل هذا الإنسان آلة مهدية لا آلة إنتاجية، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ (يس: ٧٠)، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، في إشارة إلى ضرورة علاج هذه الروح بعد إحيائها بالتعرُّف إلى خالقها، فجعل الأخلاق آلة إصلاحية لهذه الروح في مرتبة أُولى، مُبيِّناً أنها (الأخلاق) تمثل كيفية تعامل الإنسان مع الله، ومع الحياة، ومع الكون بما فيه من جمادات وحيوانات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ (البقرة: ٢٠٥).

فالأخلاق في القرآن الكريم تمثل قوة نفسية تدفع العقيدة السلوكية، بحيث تدفع الإنسان إلى أن يتصرف كما يليق بالكرامة الإنسانية، لا أن يتصرف كما تحمله القوة الحيوانية، أو القوة الآلية. "فالصبر والصدق، والعدل والإحسان، وغيرها هي مثال الكمال الذي يطلبه الإنسان لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ (الشورى: ٤٣)، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠)، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)."[٢٥] فهذه هي فضائل الأخلاق القرآنية، "وهي أخلاق إنسانية جاءت لإقامة فضائل الإنسانية عامة كقانون تسمو تحت سلطانه فضائل الأخلاق المقبولة عند الإنسانية كلها؛ فالفضيلة عموماً تُحرِّم الغيبة، والنميمة، والكذب، والنفاق، والمخاتلة، والمخادعة."[٢٦]

ولدوام الإصلاح الاجتماعي، فقد شرع الله تعالى الأخلاق الاجتماعية إكمالاً للأخلاق الفردية، وهي مكارم الأخلاق من العدالة والإنصاف، والاتحاد والمواساة؛ فقوام

[٢٥] العقاد، **الفلسفة القرآنية**، مرجع سابق، ص٣٠-٣٥.

[٢٦] أبو زهرة، **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، مرجع سابق، ص٦٥.

الإصلاح الجماعي هو الإصلاح الأخلاقي الذي يعود بالنفع على المجتمع والإنسانية جمعاء، فيما يُعرَف اليوم بالقيم العليا، وحقوق الإنسان، وعلى رأسها المودة، والرحمة، والعدل، والحرية، وما يتفرع عنها من التسامح والسماحة والمساواة؛ وذلك "لأن الدعوة إلى الإصلاح يعني القصد إلى إقامة عالم يسوده العدل والرحمة والمصلحة؛ أي سيادة قيم المودة والرحمة والعدل والسماحة، وتفريغ العالم من الشرور، وهذه القيم لا تكون إلا بالاعتقاد الصحيح والاستقامة، فعند نفوذه في نفوس أتباعه يحبب إليهم العدالة والاستقامة حتى يبلغوا درجة التطبع عليهما، فينساقوا إليها باختيارهم."[٢٧]

وقد نظرتُ في القيم الضرورية للإنسان فوجدت أهمها قيمتين، هما: العدل، واليسر والرحمة؛ فبهما تتحقق مصالح الإنسان وتكتمل.

أ. **العدل**: هو قيمة عالية تتصدر كل القيم والثوابت التي يدعو إليها الدين عامة والقرآن الكريم بوجه خاص؛ إذ إنه مقصد الشريعة الأول الذي يترجم معنى الإصلاح وإبعاد الفساد، بما يعني من دفع للجور والظلم، وهو يعني جماع مزاج الإسلام وخصيصة حضارته؛ أي الوسطية والتوازن المدرك بالبصيرة الذي يحقق الإنصاف بإعطاء كل إنسان ماله، وأخذ ما عليه منه؛ لذا كان فريضة واجبة فرضها الله تعالى على الناس كافةً من دون استثناء؛ على رسوله، وعلى أولياء الأمور، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ (الشورى: ١٥)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النساء: ٥٨).[٢٨]

وأساس العدل في القرآن الكريم هو المساواة؛ "فالقرآن وإن أقرّ التفاوت بين الناس فيما ينتظم به العمل الجماعي فلا تفاوت بسبب الجنس، أو اللغة، أو اللون؛ إذ لا فرق بين إنسان وإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ (الحجرات: ١٠)، وكذلك في فقه العلاقات الدولية لا فرق بين أُمة وأُمة، ولا بين قبيلة وقبيلة، ولا بين أحد وأحد، إلا

[٢٧] ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٦٢ فما بعدها.

[٢٨] عمارة، محمد. **الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥٥-٥٦.

برعايـــة الحقـــوق والواجبـــات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات: ١٣). فالتعارف هو مقصد الاختلاف، ووسيلة للتعاون والإخاء، وليس وسيلة للادعاء والتنابذ والتعصب للأجناس والتعالي بالعصبيات، فلا تفاضل إلا بالتقوى والصلاح، وليس بالقوة فقط."[٢٩]

وأمَّا ما شاع على ألسن الناس من أن الإسلام دين سيف، وأن العلاقة بينه وبين غيره من الأمم علاقة حرب وقتال لا علاقة سلم ووئام، فنقول -بمنطوق آياته- إن الإسلام لم يضع السيف قط في غير موضعه، ولم يستخدمه قط حيث يستغنى عنه بغيره، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ (البقرة: ١٩٠)، وقال سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧)؛ "فقوام العلاقات الدولية في الإسلام على الرفق ما أمكن الرفق، ثم على القوة المنصفة لاتقاء ما لا يتقى بغيرها."[٣٠]

فالعدل إذن هو شعار الدين وميزته، قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (النحل:٩٠). وقد ذكر العلماء أن هذه الآية هي أجمع آية لمعاني الإسلام التقت فيها كل خواصه.[٣١]

ب. اليسر والرحمة: اليسر والرحمة من أوضح سمات الشريعة الإسلامية، بل عنوانها الواضح الذي تُعرَف به؛ فأي أمر يجيء إلى الناس باسم هذه الشريعة -إن افتقدوا فيه تلك الصفات- فهو دخيل عليها (الشريعة)، مفهوم على غير وجهه الذي يريده، وبهذا نطقت نصوص القرآن وآياته، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ

[٢٩] العقاد، **الفلسفة القرآنية**، مرجع سابق، ص٤١ بتصرف.

[٣٠] المرجع السابق، ص٩٤- ٩٧.

[٣١] أبو زهرة، **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، مرجع سابق، ص٦٣-٦٤.

وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ (النساء: ٢٨).[٣٢] ولذلك دخل الإسلام قلوب الناس، وكسب عقولهم، فأثبتوا وجودهم في ظله.

ثالثاً: مقصد إصلاح العالم بتشريع العبادات الصحيحة

العبادة في الإسلام مقصد عام للخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦)، وهي في حقيقتها طاعة لله تعالى مع محبة وتعظيم وخضوع، تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال التي أمر بها، وندب إليها؛ سواء أكانت أعمالاً ظاهرةً مثل الصلاة والزكاة والحج، أم أعمالاً باطنةً مثل ذكر الله بالقلب والخوف منه والتوكل عليه... ؛ فعِلَّة وجود الإنسان هي العبادة، غير أن العبادة – بأوسع معانيها– التي تعد منهجاً تفصيلياً تبدأ بالعلاقات الزوجية، وتنتهي بالعلاقات الدولية؛ فيدخل فيها أعمال الإنسان التعاملية، مثل: الصدق، والأمانة، والعفة، والإنصاف، والرحمة... فهي عبادة لأنها تمثل سلوكاً ناتجاً من عقيدة، بحيث لا نستطيع أن نقطف من الدين شيئاً إن لم نستقم على أمره. والعبادة الشعائرية أيضاً (مثل: الصلاة، والحج...) لا تُقبَل ولا تصح إلا إذا صحت العبادة التعاملية؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (التوبة: ٥٣).

ومقصود العبادة لا يتحقق إلا إذا أدَّى الإنسان وظيفته الاستخلافية التي تتحقق بالسعي في مناكب الأرض والسير فيها، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩)، وقال سبحانه: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠). وهذه العبادة تتغير من عصر إلى عصر، ومن زمان إلى زمان، وحتى من مكان إلى مكان؛ فاستخراج الثروات، وتطوير الصناعات، واستصلاح الأراضي، وإنشاء السدود، وتأمين المنتجات الزراعية، والمنتجات الصناعية، وحل مشكلات الأُمة كلها عبادات؛ لأنها تُحصِّن عقيدتنا وفكرنا، وتبعث

[٣٢] الخطيب، عبد الكريم. **التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته**، بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٥م، ص٢٠٩.

أُمتنا، وتُحقِّق استخلافنا، وتضمن وجودنا، وهذا هو المطلوب منَّا في عصرنا، ويتأكد الأمر في ظل تخلُّفنا.[٣٣]

وتأسيساً على ذلك، فإن معنى العبادة في الإسلام يتضمن الدين والحياة من جهة، وكيان الإنسان (ظاهره، وباطنه) من جهة أخرى، ولعل ذلك هو ما دفع العلماء المحققين إلى تضمينها -إلى جانب الشعائر المفروضة- ما زاد عليها من ألوان التعبد التطوعي؛ من: ذكر، وتلاوة، واستغفار، ومن أخلاق وفضائل إنسانية جامعة، مثل: الصدق، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والبهائم...، ومن أخلاق ربانية عالية، مثل: حُب الله ورسوله، وخشيته سبحانه، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه...،[٣٤] ومن عبادات كونية حضارية، مثل: البناء، والتعمير، والاكتشاف، والتصنيع، وإعداد خطط الرفاه والتدبير... وبذلك تصبح أعمال الإنسان كلها عبادة، تسمو بالروح، وتحافظ عليها، فلا نقتصر على مفهوم "العبادة" بأداء أعمال خاصة فردية من دون ملاحظة حظ الجماعة فيها؛ فحظ الجماعة ملحوظ في العبادات، وبإمكان العبادة أن تبني أُماً في ظل التوسع الروحي.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تُبيِّن أن تقوى الله ﷻ والأعمال الصالحة تفضي كلها إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦). لقد بيَّنت هذه الآية الكريمة الأثر المترتب على العبادة في حياة المسلم؛ فمَن اتقى الله ﷻ وآمن به، فإن الله تعالى يثيبه ويعطيه في الحياة الدنيا من الرزق، ويفتح عليه من بركات السماء والأرض، وذلك بإنزال المطر، وإخراج النبات والكنوز من الأرض.[٣٥]

---

[٣٣] النابلسي، محمد راتب. "حقيقة العبادة: تعريفها، وأقسامها، ومستوياتها"، مقال في الموقع الإلكتروني: http://www.nabulsi.com، يوم ٢٠١٧/٣/١م بتصرف.

[٣٤] محمد حلمي، عبد الوهاب. "العبادة في الإسلام... مفهوم وغاية"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد ١٤٠، ٢٠١١م.

[٣٥] العباد، عبد المحسن بن حمد البدر. "أثر العبادات في حياة المسلم"، مقال في موقع راية الإصلاح الإلكتروني: http://rayatalislam.com، يوم ٢٠١٦/١٢/١٣م.

فهي إذن سلوك الروح إلى خالقها؛ بالتقرب إليه بكل ما هو صالح في الدنيا، فيكون جزاؤها الحسنى في الآخرة. ولتمام الإصلاح العملي، فقد تدرَّج بنا القرآن الكريم إلى ضرورة بناء سلوكنا ومعاملاتنا المالية وغير ذلك؛ بتعظيم أخلاق وقيم جاء ذكرها فيه، ولا شك في أن أهم ما عني به القرآن هو إصلاحه التعامل المالي؛ لأنه مجال تزيغ فيه الأنفس كثيراً.

رابعاً: مقصد إصلاح العالم بإصلاح المعاملات

يراد بذلك -مثلاً- تحريم الربا وأكل أموال الناس بالباطل، والإشارة إلى أنواع المعاملات المالية الصحيحة، مثل: البيع، والهبة، والمعاملات الأسرية، كالزواج، والطلاق... .

١. المعاملات المالية:

نبَّه القرآن الكريم لعديد المعاملات المالية الصحيحة؛ نظراً إلى ضرورتها في إقامة الحياة، وضرورة الإنسان إليها، وهي وسائل لإصلاح معاشه. فقد جاء الإسلام والناس يتعاملون بالربا؛ استغلالاً للضعيف والفقير، فأبطله، وأحل البيع والتجارة وكل تبادل لا غبن فيه ولا ضرر، وأقام العقود على التراضي، وجعل لها شروطاً عادلةً لا استغلال فيها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ (البقرة: ٢٧٥-٢٧٦)، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ (البقرة: ٢٧٨)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢). فقد أجاز الشرع كل ما من شأنه تنمية المال وزيادته بلا ظلم ولا غبن، وأجاز أيضاً انتقال المال بالوراثة، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ (النساء: ٧)، وقال عز من قائل: ﴿مِنۢ بَعۡدِ

وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (النساء: ١١)، "فشرع الوصية وجعلها في حدود الثلث؛ وذلك لحفظ كيان الأسرة، وتحقيق العدل بين أفرادها، فمَن كان غنياً ينتقل ماله بالجبر داخل الأسرة في دائرة الثلثين، وقد كان الإسلام في ذلك وسطاً بين الذين قطعوا أوصال الأسرة بمنع انتقال الملك بالخلافة منعاً باتاً، وبين الذين أجازوا للمالك أن يتصرف في ملكه حياً أو ميتاً لمَن يشاء، لا فرق بين قريب أو بعيد، ولا غني أو فقير، وهي معظم القوانين الغربية، فكانوا يُورِّثون بالوصية مَن يشاءون، ويمنعون الباقي."[٣٦]

وبهذا تأصلت في القرآن الكريم أسس النظام المالي الإسلامي الذي يقوم على النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وثبوت الملكية للأفراد، ومنع الضرر والجهالة؛ لكيلا يفضي التعامل إلى النزاع،[٣٧] ولكن يجب القول كما قال العقاد: "إن الإسلام لم يأتِ بخطة اقتصادية -تُقيِّد الأُمة- إذا خرجت عنها الأُمة خرجت عن الدين، بل جاء بأصول وكليات صالحة للتطبيق كلما تجددت الأزمان والأنظمة الجزئية الدقيقة، وليس معنى ذلك أن الإسلام ينفض يديه من مهمة الإصلاح الاجتماعي في زمن من الأزمنة، ولكن معناه أنه يقرر للإنسانية أصولاً لا يتحقق لها صلاح بغيرها، ثم يُفوِّض للعقل الإنساني كل الرأي في اختيار ما يلائمه من تفاصيل الإصلاح، غير مُقيِّد له بفرع من الفروع المتجددة ما دام أميناً على تلك الأصول."[٣٨]

فموقف الإسلام الفريد من المال ينسجم مع الحقيقة التي يقوم عليها بناء هذا الدين من أن الكون كله ملك لله، بما في ذلك المال، والإنسان في كل تقلباته وتصرفاته وسكناته وحركاته، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣). فبقدر ما يُخضِع الإنسان كيانه لهذه الحقيقة يكون قدر صلاحه وتمام النعمة عليه ورضاه، قال سبحانه: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾ (الليل: ١٩-٢١).

---

[٣٦] أبو زهرة، **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، مرجع سابق، ص٨٣-٨٤ بتصرف.

[٣٧] المرجع السابق، ص٨٣-٨٤.

[٣٨] العقاد، **الفلسفة القرآنية**، مرجع سابق، ص١٩٤-١٩٥.

ويوضح القرآن الكريم هذا الموقف بأشكال مختلفة؛ إيجاباً وسلباً، وجوداً وعدماً، فيأمر باقتنائه ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)، ويمنع اقتناءه من السحت والربا والغصب والسرقة، ويفصل أسباب الملكية المباحة وكيفية التصرف في المال وحسن إدارته، فيمنع التبذير الذي يفوت صاحبه المال على غير هدى، ويرميه إلى غير مرمى، ويمنع أيضاً التقتير الذي يمنع صاحبه الحقوق، ويغل يده إلى عنقه ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ (الإسراء: ٢٩)، ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧)، ثم يؤكد حقيقة الاستخلاف ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).[٣٩]

ولهذا نهى القرآن الكريم عن أكل أموال الناس بالباطل عن طريق البخس والغش وتنقيص المكيال والميزان، ليس لأنه يقلب الموازين الاقتصادية في المجتمع، ويربك التعامل التجاري فحسب، بل لأنه يُمهِّد الطريق إلى الفساد والظلم اللذينِ يُسبِّبان الفقر والفاقة في المجتمع. وقد حرَّم الله ﷻ ممارسة هذا الانحراف المالي على المسلمين، وتوعَّد كل مَن يتعامل بهذه الطريقة المنحرفة بالويل والثبور ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ (المطففين: ١-٥)، وسمَّى كل ذلك إفساداً في الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وجاء على لسان سيدنا محمد ﷺ بعد أن نهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ (هود: ٨٨).

٢. المعاملات الأسرية:

مثلما أقام القرآن الكريم -في إطار إصلاحه العام- نظاماً للمعاملات المالية، فإنه أشار إلى نظام آخر يشمل العلاقات الفردية، فأرشد إلى نظام للأسرة؛ إصلاحاً لما كان

[٣٩] ابن بية، عبد الله. "المعاملات والمقاصد"، بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس الأوروبي للإفتاء، باريس، ٢٠٠٨م، الموقع الإلكتروني: https://www.alkutubcafe.com

فاسداً في الجاهلية، حيث كان نظام الأسرة يخضع لنظام المصلحة الشخصية تارةً، ولمنطق القوة تارةً أخرى؛ فلا تراحم ولا مودة، فجعل منه نظاماً للمودة والرحمة والتعارف، لا نظاماً للنسب والحسب والمال والجاه؛ لأن الزواج الصحيح يضبط العلاقات الاجتماعية، والسكن، والاستقرار، وهدوء النفس، وراحة البال، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١)، فدل بذلك على أن الزواج يحقق تكامل الجنسين، إلى جانب إعفافهما وصونهما من الفجور والخنا والفساد. ولهذا يرى ابن عاشور في الزواج: "حُباً، وِوداً، ولطفاً، ورحمةً، وتعاوناً، وتناسلاً، واتحاداً، وإقامةً لنظام العائلة، ثم لنظام القبيلة، ثم الأُمة. وفي خلال تلك المعاني كلها معانٍ كثيرة من الخير والصلاح والعلم والحضارة."[٤٠]

وقد أقام القرآن الكريم هذه العلاقة على الأخلاق، بما في ذلك حسن العشرة، والإحسان، والمودة، والرحمة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩)، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، وقال ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨)؛ ما يمثل الغاية من الزواج، فليس المقصود منه التكاثر، وبقاء الأنواع فحسب، بل المودة، والرحمة، والتعاون، والاستقرار، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾ (الروم: ٢١). فإضافةً إلى تحقيقه المتعة الحسنة واللذة الجسدية، فإنه يمثل رابطة يتم بها سكن النوعين، وقيام المودة والرحمة والحُب.[٤١]

وأمَّا ما جاء به القرآن الكريم من إباحة التعدد فمقصوده حماية الفطرة الإنسانية من التدافع نحو التلذذ بلا رادع، وهو تشريعه بنص الآية الكريمة: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ (النساء: ٣)؛ إذ لم يعطِه حكم الوجوب –مثلما يظن بعض الناس– فهو مباح في أصله، لا يقتصر فقط

[٤٠] ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٥٦.

[٤١] عبد العزيز، جابر. **الإسلام الدين القيم: دراسة نقدية فكرية للرد على مزاعم وافتراءات الغرب**، الإسكندرية: دار المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٨م، ص٧٢.

على التلذذ الحيواني، والتنقل بين الزوجات، كما ينتقل الخليل في الخليلات، وإنما هو ضرورة تواجه ضرورة، وحل لمشكلة.[٤٢]

وبالمقابل، فقد أشار القرآن الكريم إلى طرائق انحلال هذه الرابطة بعد استحالة استمرارها، فشرع الطلاق -الذي كان شائعاً قبل الإسلام- للضرورة (كان مباحاً بلا حدود في اليهودية، ومحرماً في المسيحية)، وقدَّم مهلة بتشريع ثلاث طلقات يحق بعد كل واحدة منها المراجعة، وتدارك الرابطة بالتصالح إلا في الثالثة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وأباح لجوء المرأة إلى الطلاق في حال تضررت من الزواج، وأجاز لها الخلع بردِّ المهر، وهذا كله إصلاح يؤكد الفطرة، ويحقق العدل في العلاقة الزوجية؛ فالنساء كنَّ في حكم الماشية، يجوز للآباء والأزواج التصرف بأمورهن كما يحلو لهم، ولم يكن للبنات حق في الميراث، ولا في أي حق من الحقوق، وكثيراً ما كانت الوليدة تُدفَن في طفولتها لما تمثله من عار لوالدها بحسب الاعتقاد الشائع آنذاك، فجاء الإصلاح الاجتماعي في القرآن الكريم ليرفع من شأنها، ويمنع وأدها، مُؤَكِّداً حقها في الحياة، ومُبيِّناً حقوقاً أخرى مرتبطة بحق الحياة؛ فأعطاها حقاً في الميراث ولم يمنعها، وبيَّن حقها في النفقة ومباشرة المعاملات المالية، شأنها في ذلك شأن الرجل، وهذا من تمام العدل عنده.[٤٣] وبذلك ساوى القرآن الكريم بين المرأة والرجل في جميع الحقوق والواجبات. أمَّا ما آل إليه وضع المرأة في بعض المجتمعات بعد نزول القرآن الكريم فالإسلام منه بريء، وهو من صنع المسلم لا الإسلام.[٤٤]

وذكر أحكام الأسرة في القرآن الكريم له حِكم عدَّة، منها: عدم ارتياب أحد في أحكامها، وضمان بقائها دائمة لا ينحرف منحرف عن أحكامها، ولا يتأوَّل متأوِّل بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى، وابتعاد الناس عن تقليد غيرهم في أمر الأسرة.[٤٥]

---

[٤٢] مسلم، مصطفى، ونخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن. **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، الشارقة: كلية الدراسات العليا، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٢، ص٢١.

[٤٣] عبد العزيز، **الإسلام الدين القيم: دراسة نقدية فكرية للرد على مزاعم وافتراءات الغرب**، مرجع سابق، ص٧٦-٨١.

[٤٤] العقاد، **الإسلام دعوة عالمية**، مرجع سابق، ص١١٢.

[٤٥] أبو زهرة، **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، مرجع سابق، ص٨٧-٩٨.

ومثلما اهتم القرآن الكريم بالجانب الجنسي للإنسان وقنَّنه بوسطية، فقد اهتم بصحته وغذائه لأنه جسد، فأرشد إلى ما ينميه ويقويه فأحله، ونبَّه على ما يضره فحرَّمه حتى يتميز عن غيره من المخلوقات.

خامساً: مقصد إصلاح العالم بإصلاح العادات

يكون ذلك بالتنبيه على أنواع المطعومات والملبوسات، والنهي عن تناول الخبائث، والإذن في ركوب بعض الحيوان... فالمنهج القرآني لم يُهمِل إصلاحياً الجانب الجسدي المادي للإنسان؛ إذ وجَّهه إلى أكل الطيبات، واجتناب الخبائث، مثلما لم يُهمِل جانبه الروحي والمعنوي ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (النحل: ١١٤-١١٥)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (المؤمنون: ٥١)، فأمره بتأمين مختلف الحاجات الأساسية اللازمة لنموه السليم، وحياته الكريمة؛ من: طعام، وشراب، ودواء ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٣)، مُصرِّحاً بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية ومنافعها التسخيرية ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (النحل: ٥-٩).

وممَّا يدل على قصد إشباع حاجة الإنسان الجمالية، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات، ما أورده القرآن الكريم من

مشاهد الجمال والتزين والتمتع بالطيبات، في إشارة إلى ضرورة تقويم السلوك وضبطه بما يناسب مقصده، فينتج من ذلك تميُّز المسلم في عقائده، وعبادته، ومناهج حياته، وهدفه من هذه الحياة بحيث تكون مطية للآخرة. فإذا كان هدف الكافر -في الحياة الدنيا- من عمله الاجتماعي والسياسي والإصلاحي هو تحقيق التقدُّم المادي، أو تعميم الشهوة، فإن الهدف العام للمسلم في عمله العام هو إقامة الدين لتحقيق مصالحه؛ ما يفضي إلى تميُّز في السلوك يجمع بين ما يحقق المتعة والحكمة وما يحقق العبادة والرقي الروحي، ولهذا أباح القرآن التمتع واللعب واللهو والزينة والتكاثر، ولكن بما يحقق كمال الروح، وما يقويها، لا بما يهدر الروح ويهددها.[٤٦]

فالإنسان في نظر القرآن روح وجسد، وكما شرع ما ينمي الروح ويكملها شرع ما ينمي الجسد وينميه؛ إكمالاً لسعادة الإنسان في الامتثال لأمر خالقه، قال تعالى مُبيِّناً حدود التمتع: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ (آل عمران: ١٤)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ (محمد: ٣٦)، وقال تعالى في بيان حقيقة الحياة، والتذكير بفنائها لا محالة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الحديد: ٢٠).

وقد أرشد القرآن الكريم المسلم إلى ضرورة التوسط في التمتع واللعب واللهو؛ لكيلا تموت الروح ويبقى الجسد، ولكيلا يموت الجسد وتبقى الروح، فأوصاه بالتمتع في تعقل واعتدال من دون إفراط ولا تفريط، ووضع لذلك ضوابط؛ فحرَّم الذهب على الرجال لأن كمالهم في قوتهم وعقولهم وأعمالهم،[٤٧] وأباح لهم ركوب الخيل والدواب والأنعام واستخدامها، مُحذِّراً إياهم من طغيان حُبهم لها على إعطاء حق الله تعالى فيها؛ فلهم أن يستعملوها، ولكن في الطرائق المشروعة ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا

---

[٤٦] حوى، سعيد. **الإسلام**، القاهرة: دار السلام، ط٤، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٢٥٧ بتصرف.

[٤٧] الخضر، محمد حسين. **مقاصد الإسلام في إصلاح العالم**، ضمن: **موسوعة الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين: الدعوة إلى الإصلاح**، سوريا: دار النوادر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٩، ص١٣١.

تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ (النحل: ٨). وأباح لهم أيضاً تملُّك المال؛ فهو أمر مرغوب، ولكن من دون نسيان الفقير والمحتاج ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (آل عمران: ١٤).

وخلاصة ذلك أن المسلم يحب المال بوصفه وسيلةً لحفظ كرامته عن ذل السؤال، ويحب النساء ضمن حدود التمتع المسموح ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (النور: ٣٠-٣١)، ويحب الأولاد، ولكن حُب الله أعظم؛ فلا يصرفه حُبهم عن ذكره، وعن الصلاة، وعن العبادة كلها، وعن الجهاد ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (التغابن: ١٥)، ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤).

والحقيقة أن الخيل والأنعام والحرث والسيارات الفاخرة وكل ما يُركَب هو سبيل للتمتع من دون مباهاة أو تفاخر؛ إذ إن ذلك كله ليس ممَّا يتوقف عليه وجود الحياة وقيامها واستمرارها، وإنما هو تكميلات وتحسينات، فلم يُكثِر القرآن الكريم من ذكرها؛ لأن الاهتمام بها يقلب الفروع عن أصولها، ويميت القلب وروحها. أمَّا التمتع بالطعام والشراب فقد أباحه القرآن الكريم بما يحقق وجوده بوصفه إنساناً متميزاً عن الحيوان؛ فلا يأكل النجاسات، ولا يشرب الخمر ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)، فضبطها بحِكَم أخلاقية ترقى عن كل حكمة غذائية.[٤٨]

وغاية القرآن الكريم من هذا كله هي جعل الإنسان محور الحضارة التي يريد إنشاءها؛ إذ هو العنصر الفاعل المُؤثِّر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). فالوظيفة التي أناط القرآن بها الإنسان حقيقةً إنما هي عمارة الأرض بمعناها الشامل العام، التي تشتمل على إقامة مجتمع إنساني سليم، وتشييد حضارة إنسانية شاملة.

[٤٨] حوى، **الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٥٧-٢٨٠ بتصرف.

يقول الميداني في هذا الصدد: "وبإحصاء صور التقدُّم والرقي عند الإنسان نستطيع أن نرجعها إلى الأصناف الثلاثة التالية:

الصنف الأول: ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش، وأسباب الرفاهية والنعيم،...، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم العمراني والزراعي والصناعي والصحي والأدبي والفني، والتقدُّم في الإنتاج الحيواني، واستخراج كنوز الأرض، والاستفادة من الطاقات المنبثة فيها، وما أشبه ذلك، ويدخل ضمن هذا جميع أنواع العلوم والثقافات التي تخدم هذا الصنف.

والصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني، ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء، ... ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدُّم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية، والحقوقية، والمالية، والأحوال الشخصية، والشامل للأخلاق والتقاليد والعادات الفاضلات، وسائر طرق معاملة الناس بعضهم بعضاً في علاقاتهم المختلفة، وكل أنواع الثقافات والعلوم التي تخدم هذا الصنف.

والصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان فرداً كان أم جماعةً إلى السعادة الخالدة التي تبدأ منذ مدة إدراك الإنسان ذاته والكون من حوله، وتستمر مع نفسه وروحه الخالدتين إلى ما لا نهاية له في الوجود الأبدي، ... ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدُّم الفكري القائم على التأملات الحكمية، التي توصل الإنسان إلى معرفة الخالق، وسر وجود الإنسان، وغايته ومصيره، وواجبه في الحياة الدنيا ...، وهي الأمور التي تحمل اسم المعتقدات والواجبات الدينية وسائر التكاليف والآداب الشرعية الإسلامية".[٤٩]

وهكذا كان القرآن الكريم مصدر الحضارة الإنسانية الراقية بتعاليمه التي شملت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأوفى بمتطلبات الروح والبدن والعقل، وعالج قضايا الفرد والجماعة والدولة، "فاعتنى بمختلف القيم النفسية والاجتماعية والمادية للإنسان في تكامل يستهدف حاجات الإنسان، ويرتفع به عن المطامع والأهواء. وقد انطلق من أصدق منطلقات الإنسان وهي الفطرة، فقد دعا إلى الزواج والشراب والزينة

[٤٩] الميداني، عبد الرحمن حسن. **الحضارة الإسلامية: أسسها، ووسائلها، وصور من تطبيقات المسلمين لها، ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم**، دمشق: دار القلم، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٩-٢٠.

والطعام والعمران، وركز حول ذلك الجانب الاجتماعي قيماً ثابتةً، وجعل لها ضوابط أهمها التوسط وعدم الإسراف ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ (الأعراف: ٣١)."[٥٠]

ويحق لنا أن نطلق على هذا الفقه اسم فقه العادات؛ الذي يُعلِّمنا أن التمتع بهذه النعم وتطويرها هو مقصد القرآن الكريم، لتكون في خدمة الروح والمادة معاً، وأن ذلك لا يتحقق إلا ببناء الأرض وعمارتها، والسير في مناكبها، والأكل من رزقها، فهذا هو الإصلاح المنشود الذي يؤدي إلى العمران الحضاري، وفق كل الظروف والأحوال التي يعيشها الفرد المسلم في أي زمان، فيما يُعرَف عند المعاصرين باسم فقه العمران؛[٥١] تحقيقاً لمصالح الناس المتجددة والمتغيرة مع تغير الأزمان بحيث إذا فُقِدت أصبحت من مفاسد الأرض.

سادساً: مقصد إصلاح العالم بإقامة العقوبات والزجر عن الاعتداء

حافظ القرآن الكريم على هذه التشريعات بسَنِّه نظاماً عقابياً جزائياً فريداً، جمع بين الرحمة والشدة؛ بُغية تطهير المجتمع من الفساد والمفسدين ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ (المائدة: ٣٨)، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ (النور: ٢)؛ فهذه الدساتير الصارمة ما أُقِرَّت إلا للحد من الفساد والإفساد في المجتمع الإسلامي.

وقد فرَّق القرآن الكريم بين عقوبات الجنايات تبعاً لتأثيرها في الصالح العام، ومقدار المصلحة المجتلبة، فشدَّد في عقوبات الجرائم التي تمس مصلحة المجتمع كله، وشرع حدوداً لها مصالح في حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعِرض؛ إذ شرع عقوبة القتل للمرتد حفاظاً على الدين، وعقوبة القصاص حفاظاً على النفس، وحرَّم الخمر، وشرع حداً فيه حفاظاً على العقل، وأمر بقطع يد السارق حفاظاً على المال، وشرع حد القذف

[٥٠] الجندي، أنور. **مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام**، مصر: مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٣٠.

[٥١] انظر: القحطاني، مسفر بن علي. **الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٣م.

حفاظاً على العِرض، ثم تدرَّج في العقوبة في حال كان أثرها خفيفاً بالنظر إلى جرائم الحدود، فشرع التعزيرات بحسب الجريمة المقترفة، ونوَّع فيها على حسب تحقُّق المقصد منها؛ بين التوبيخ، والتشهير، والضرب، والسجن... بما لا يصل إلى حد القتل أو القطع.[٥٢]

فالعقوبة في الإسلام مقصود منها حماية المجتمع، وهي ضرورة اجتماعية اقتضتها مصلحة الجماعة. وكل ضرورة تُقدَّر بقدرها؛ فإذا كانت مصلحة الجماعة تتحقق بتخفيف العقوبة وجب أن يستفيد الجاني من التخفيف؛ لأن حفظ مصلحة الجماعة ليس في التشديد، وليس من العدل في دين العدل أن تكون العقوبة زائدة على حاجة الجماعة طالما شُرعت لحماية الجماعة، ومثال ذلك ما كان عليه الوضع في الجاهلية إزاء جريمة القتل؛ إذ كانت عقوبة القتل توقع تبعاً للجاه والمال والحسب، فأصلح الإسلام ذلك، وساوى بين الناس في الحكم؛ لأن المقصود ليس ذات الإنسان، وإنما حال الجماعة ومصلحتها.[٥٣]

خاتمة:

يتبيَّن ممَّا سبق شدة اعتناء القرآن الكريم بالإصلاح حتى غدا مقصداً دينياً مُؤصَّلاً فيه، شاملاً عدَّة مجالات فردية وجماعية وإنسانية. وقد حرص القرآن الكريم على الجمع بين المادة والروح تحقيقاً لمعنى الإنسانية، وأكد عدم اكتمال صلاح الفرد أو المجموع إلا بصلاح الآخر؛ ما أوجب تشريع كل ما يُصلح الفرد والجماعة. وفيما يأتي أهم النتائج التي انتهى إليها البحث:

١. الإصلاح عموماً هو دفع الفساد، وجعل الشيء صالحاً؛ إمَّا بتعديله، وإمَّا بتغييره كلياً.

٢. آيات الإصلاح في القرآن الكريم تعد دستوراً شاملاً، وتقنيناً كافياً لكل إصلاح.

---

[٥٢] أبو زهرة، **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، مرجع سابق، ص٨٤-٨٦.

[٥٣] حوى، **الإسلام**، مرجع سابق، ص٥٤٦ وما بعدها بتصرف.

٣. الإصلاح (استقراءً للآيات الآنف ذكرها، وما يكملها من أحاديث نبوية شريفة) هو مقصد قرآني قطعي؛ سواء بما يقصده من عموم تحقيق المصلحة، أو بما يقصده من ضوابط لهذه المصلحة.

٤. المقصود من الإصلاح القرآني هو حفظ نظام العالم باستدامة صلاحه، ولا يتحقق ذلك إلا بصلاح الإنسان المهيمن عليه.

٥. صلاح الإنسان المهيمن على العالم يكون بصلاح تفكيره أولاً؛ لكي يتمكن من إصلاح ما بين يديه.

٦. إصلاح العالم من منظور القرآن الكريم هو تحقيق المصلحة للناس كافةً، والحفاظ عليها؛ فكل ما يقيمها مطلوب، وكل ما يُعوِّقها مذموم.

٧. صلاح العمل في الإسلام ليس مقصوداً منه الإتيان بالعبادات المفروضة فقط، وإنما كل عمل يحقق عبودية مخلصة؛ من: سلوك، وقيم أخلاقية فردية وحضارية.

٨. للفكر الجماعي أثر كبير في تنمية روح الإصلاح وتحقيقها؛ لارتباطه الوثيق بالقيم الحضارية التي تسمو على كل قيمة فردية.

وتأسيساً على ذلك، توصي الباحثة بما يأتي:

١. ضرورة تفعيل قراءة القرآن الكريم بناءً على فكرة الجماعة لا فكرة الفرد؛ أي التركيز على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى جانب التفسير الجزئي.

٢. وجوب توسيع معنى العبادة بحيث يصبح كل عمل مقصود منه الإصلاح عبادةً لها أجرها عند الله تعالى.

٣. التشديد -في كل إصلاح أو تغيير- على تحقيق المصالح للناس في ضوء القيم الحضارية، وعلى رأسها المساواة، والعدل، والرحمة.

٤. إعطاء معنى جديد للعقيدة الإسلامية، ومحاولة ترسيخه بضرورة العمل والاجتهاد، وبذل الجهد لتحقيق كل ما هو نافع، ولا سيما أن الإصلاح يتيح لنا تحقيق الوسائل المشروعة حتى يكون التمكين.

مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين

ماهر حسين حصوة*

الملخص

تتناول هذه الورقة الجهود التي بذها المفكرون المعاصرون من أجل بيان مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران. وكان من الواضح وجود مشكلة في تحديد دلالة مصطلح مقاصد القرآن وأهمية هذا المصطلح، مما يرتب على هؤلاء المفكرين مسؤولية الوصول إلى قدر من التوافق على تحديد المقاصد الأساسية للقرآن الكريم ودورها في تقويم وتوجيه وبناء المعرفة والتواصل الثقافي وتحقيق الحضور الحضاري، والبناء على المشترك الإنساني. وتخلص الورقة إلى استعراض نموذج لمقاصد العمران الحضاري في أعمال مجموعة من المفكرين المعاصرين، وتحديداً: محمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور، وعلال الفاسي، وسيد قطب، وأحمد الريسوني.

الكلمات المفتاحية: مقاصد القرآن، البناء الحضاري، العمران، الفكر الحضاري.

Intents (*Maqasid*) of the Gracious Qur'an in Building Civilization and Development

Maher Haswah

Abstract

This paper deals with the efforts exerted by modern scholars to clarify the intents and purposes (Maqasid) of the Gracious Qur'an in building civilization and development. It was clear that there is a problem in determining the meaning of this concept and its significance, which call upon scholars to discuss and make some consensus in identifying the basic intents of the Qur'an and their role in the evaluation, guidance, knowledge building, the cultural linkages, the civilizational take off, the achievement of civilizational presence and building on human commonalities.

The paper concludes with reviewing a model of the intent of building civilization (Umran), as it pertains to civilizational thought addressed by certain contemporary scholars, specifically: Muhammad Rashid Rida, Al-Tahir Ibn Ashour, Allal Al-Fassi, Sayyid Qutb and Ahmad Al-Rissouni.

Keywords: Intents of the Qur'an (Maqasid), Civilizational building, *Umran* (Civilization), Civilizational thought.

---

* دكتوراه في الفقه وأصوله، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م، أستاذ مشارك للفقه وأصوله في كلية القانون بجامعة العين للعلوم والتكنولوجيا– دولة الإمارات العربية المتحدة. البريد الإلكتروني: maherhaswa@yahoo.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٦/١٠/١٥م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/١٥م.

مقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً على نعمة هذا الكتاب الكريم الذي فتح به الله أعيناً عمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً، والذي هدانا به من ضلالة، وأرشدنا من غواية، والصلاة والسلام على مَن فَقه مقاصد كتاب ربه، فكان لنا القدوة والأسوة؛ فهماً، وسلوكاً، ومنهجاً.

يشتمل البحث على ثلاثة أقسام رئيسة، أولها يحمل عنوان: "تعريف مقاصد القرآن الكريم وأهميتها"، مُبيِّناً معنى مقاصد القرآن عند المعاصرين، وإشكالية المصطلح لـمَن تناولوا دراسة مقاصد القرآن، بَدءاً بمحمد رشيد رضا، وانتهاءً بعلماء العصر الحديث، فضلاً عن بيان أهمية مقاصد القرآن. وثانيها موسوم بـ: "جهود المعاصرين في بيان مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران"؛ إذ يستعرض ما قام به كل من: محمد رشيد رضا، وابن عاشور، وعلال الفاسي، ومحمد الغزالي، وطه جابر العلواني، وجاسر عودة. أمَّا القسم الثالث الذي يتناول نموذجاً لمقاصد القرآن المتعلقة بالجانب العمراني فعنوانه: "مقصد تقويم الفكر عند المعاصرين"؛ إذ يستعرض هذا المقصد عند كل من: محمد رشيد رضا، وابن عاشور، وعلال الفاسي، وسيد قطب، وأحمد الريسوني.

ويهدف البحث إلى إبراز جهود المعاصرين في بيان مقاصد القرآن الكريم، ولا سيما مقصد القرآن في البناء الحضاري والعمران، محاولاً معالجة إشكاليات المصطلح التي أفرزت في الظاهر تبايناً في تحديد مقاصد القرآن، وإظهار مدى أهمية التوافق في تحديد مقاصد القرآن الأساسية وأثرها في التقويم، والتوجيه، والبناء المعرفي، والصلة الحضارية، والنهوض العمراني، وتحقيق الشهود الحضاري والمشترك الإنساني.

حظي موضوع مقاصد الشريعة باهتمام كبير من المعاصرين، وقد تمثل ذلك في إنشاء مؤسسات تعنى بمقاصد الشريعة، مثل: مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية التابع لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ومقره لندن، ومركز المقاصد للدراسات والبحوث بالرباط. وكان هذان المركزان قد عقدا مؤتمراً متخصصاً عنوانه: "مقاصد القرآن الكريم"، وذلك بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية (شعبة الدراسات الإسلامية) في جامعة

محمد الخامس بالرباط في شهر أيار من عام ٢٠١٥م، ثم طُبعت أعمال المؤتمر في كتاب من منشور مؤسسة الفرقان بلندن عام ٢٠١٦م. وقد أفدت كثيراً من بعض بحوث المؤتمر في كتابة هذا البحث، ولا سيما أن مقاصد القرآن الكريم المتعلقة بالبناء الحضاري والعمران لم تلقَ الاهتمام اللازم، فجاء هذا المؤتمر ليسهم إسهاماً طيباً في إعلاء مقاصد القرآن من هذا الجانب.

ويمزج البحث بين كل من: المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي، محاولاً تحديد المعالم الرئيسة التي تُلخِّص توجه المعاصرين لدى استعراضهم مقاصد القرآن الكريم المتعلقة بالبناء الحضاري والعمران، ومقصد تقويم الفكر، فضلاً عن نقل الكثير من الفقرات المنتقاة من أقوالهم فيما سُطر من كتبهم، وهي بالعشرات، لتأكيد تلك المعالم التي أفرزها البحث.

أولاً: تعريف مقاصد القرآن الكريم وأهميتها

١. تعريفات المعاصرين لمصطلح "مقاصد القرآن":

عرَّف عبد الكريم حامدي هذا المصطلح الذي وافقه عليه أحمد الريسوني، قائلًا: "هي الأغراض العليا الحاصلة من مجموع أحكام القرآن."[١] وقد ضمَّن هذا المصطلح المقاصد العامة للشريعة؛ إذ قال: "هي الغايات التي أُنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد، فالغايات المراد بها المعاني والحكم المقصودة من إنزال القرآن، وهذه الغايات تهدف إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل."[٢]

أمَّا هيا ثامر مفتاح فعرَّفته بأنه: "الثمرات العامة، والأهداف الكلية، والغايات الجامعة التي تدل عليها جملة متعددة من الآيات القرآنية."[٣]

---

[١] حامدي، عبد الكريم. **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٧.

[٢] المرجع السابق، ص٢٩. انظر أيضاً:
– الريسوني، أحمد. **مقاصد المقاصد**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص٢٧ وما بعدها.

[٣] مفتاح، هيا ثامر. "مقاصد القرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور"، **مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**، جامعة قطر، عدد٢٩، ٢٠١١م، ص٢٩.

وعند تتبع ما سطره المعاصرون في مقاصد القرآن نجد أن ثمة إشكالية نبَّه لها طه جابر العلواني، تتمثل في الخلط بين مفهوم "مقاصد القرآن الكريم" بالمعنى المشار إليه وموضوعات القرآن الكريم، أو المحاور الرئيسة التي يدور عليها. وقد أفضى هذا الخلط إلى تباين في تحديد تلك المقاصد؛ فأغلب ما صُرفت إليه دلالة الاستعمال أنه يرد بمعنى المحاور الكبرى والقضايا الأساسية التي تتناولها سور القرآن وآياته،[٤] والتي حدَّدها محمد رشيد رضا بعشرة مقاصد،[٥] وابن عاشور بثمانية مقاصد،[٦] وعبد الكريم الحامدي[٧] والقرضاوي[٨] بسبعة مقاصد، والريسوني بستة مقاصد،[٩] والغزالي بخمسةٍ سمَّاها محاور

---

[٤] ابن حماد، مولاي عمر. "أصول التفسير ومقاصد القرآن"، **مؤتمر مقاصد القرآن الكريم**، تحرير: محمد سليم العوا، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٥٤.

[٥] هي: ١- أركان الدين الثلاثة: الإيمان بالله تعالى، عقيدة البعث والجزاء، والعمل الصالح. ٢- النبوة والرسالة. ٣- بيان أن دين الإسلام هو دين الفطرة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والبرهان، والحجة، والضمير، والوجدان، والحرية، والاستقلال (محاسن الإسلام). ٤- الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني. ٥- مزايا الإسلام العامة. ٦- النظام السياسي. ٧- الإصلاح المالي. ٨- نظم الحرب وفلسفتها أو السياسة الدولية. ٩- قضايا المرأة (إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية). ١٠- هداية الإسلام في تحرير الرقيق. انظر:
- رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**، د.م: مؤسسة عز الدين، ط٣، ١٤٠٦هـ، ص١٩١-٣٦١.

[٦] هي: ١- إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. ٢- تهذيب الأخلاق. ٣- التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة. ٤- سياسة الأُمة، وهي باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأُمة وحفظ نظامها. ٥- القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والتحذير من مساويهم. ٦- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها. ٧- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير. ٨- الإعجاز بالقرآن؛ ليكون آية دالة على صدق الرسول. انظر:
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ط ١٩٨٤م، ج١، ص٤٠-٤١.

[٧] قصرها الحامدي على سبعةٍ، هي: ١- الإصلاح العقدي. ٢- الإصلاح الفكري. ٣- الإصلاح الاجتماعي. ٤- الإصلاح التشريعي. ٥- الإصلاح المالي. ٦- الإصلاح الحربي. ٧- الإصلاح السياسي. انظر:
- حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، مرجع سابق، ص٤٨.

[٨] يميل القرضاوي إلى عدم حصرها في عدد معين، ويُقرِّر كثرتها وتعدُّدها، قائلاً: "لقد دعا القرآن إلى كثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها، ونجتزئ هنا سبعةً منها ممَّا أكده القرآن، وكرره، وعني به أشد العناية، وهي: ١- تصحيح العقائد والتصورات. ٢- تقرير كرامة الإنسان وحقوقه. ٣- عبادة الله وتقواه. ٤- تزكية النفس البشرية. ٥- تكوين الأسرة وإنصاف المرأة. ٦- بناء الأُمة الشهيدة على البشرية. ٧- الدعوة إلى عالم إنساني متعاون." انظر:
- القرضاوي، يوسف. **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، القاهرة: دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٦م، ص٧٣.

[٩] ذكرها الريسوني في كتابه "مقاصد المقاصد"، وهي: ١- مقصد توحيد الله وعبادته. ٢- مقصد الهداية الدينية والدنيوية للعباد. ٣- مقصد التزكية وتعليم الحكمة. ٤- مقصد الرحمة والسعادة. ٥- مقصد إقامة الحق والعدل. ٦- مقصد تقويم الفكر. انظر:

القرآن،[١٠] والنورسي بأربعة مقاصد،[١١] وعلال الفاسي[١٢] والعلواني[١٣] وجمال الدين عطية[١٤] بثلاثة مقاصد، وطه عبد الرحمن بمقصد واحد؛[١٥] لذا يجب ضبط مصطلح "مقاصد القرآن" بوصفه مصطلحاً، تجنباً للخلط في الاستعمال.

ولعل التباين في تحديد عدد مقاصد القرآن الكريم يعزى إلى أسباب عدَّة، منها:

– عدم استقرار دلالة المصطلح إبان تناوله من المعاصرين؛ فقد أطلق بعضهم على القضايا الأساسية التي تناولها القرآن الكريم لفظ "المقاصد" كما هو الحال عند محمد رشيد رضا.

– اجتهاد العالِم في دمج مقاصد عدَّة ضمن محور واحد، أو مقصد واحد يتفرع منه مقاصد عدَّة؛ ما قد يجعله منطلقاً لتفريعات متعددة.

– الريسوني، **مقاصد المقاصد**، مرجع سابق، ص٢٨ وما بعدها.

[١٠] استعمل الغزالي مصطلح "محاور القرآن"، وهو أدق الألفاظ في بيان المراد، وقد أراد به الموضوعات الأساسية، وهي: ١– الله الواحد. ٢– الكون الدال على خالقه. ٣– القصص القرآني. ٤– البعث والجزاء. ٥– التربية والتشريع. انظر:

– الغزالي، محمد. **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، القاهرة: دار الشروق، د.ت، ص٥.

[١١] يقول بديع الزمان النورسي: "أعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: ١– التوحيد. ٢– والرسالة. ٣– والحشر. ٤– والعدالة مع العبودية، فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب." انظر:

– النورسي، بديع الزمان سعيد. **المثنوي العربي النوري**، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، اسطنبول: سوزلر، ١٩٩٤م، ص٧٥.

– النورسي، بديع الزمان سعيد. **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: دار سوزلر، ط٢، ١٩٩٤م، ص٢٣.

[١٢] يقول علال الفاسي: "المقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق، وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض." انظر:

– الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، بيروت–القاهرة: دار الغرب الإسلامي، ط٥، ١٩٩٣م، ص٨٨.

[١٣] وهذه المقاصد العليا الحاكمة –بحسب تسمية العلواني– هي: التوحيد، والتزكية، والعمران. انظر:

– الرفاعي، عبد الجبار. "حوار مع طه جابر العلواني تحت عنوان مقاصد الشريعة"، **مجلة آفاق التجديد**، دمشق: دار الفكر، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٩٧.

[١٤] سمَّاها جمال الدين عطية مقاصد الشريعة العالية، وهي: عبادة الله، والاستخلاف، وعمارة الأرض. انظر:

– عطية، جمال الدين. **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٠٥.

[١٥] سُمِّي مشروع تخليق المقاصد، وهو يهدف إلى منح الجانب الخلقي الأولوية الاعتبارية في تحديد المقاصد، بناءً على هدف التشريع، وهو إخراج إنسان صالح؛ لذا يعد علم المقاصد علماً أخلاقياً، موضوعه الصلاح الإنساني. انظر:

– عبد الرحمن، طه. "مشروع تجديدي علمي لمبحث مقاصد الشريعة"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد١٠٣، ٢٠٠٢م، ص٤١.

– تأثُّر العالِم بالمنطلقات الفكرية التي تجعله يُركِّز على مقصد دون الآخر؛ فالوقوف على سبب التحديد يلزم منه استقراء جملة ما كتبه العالِم لتعرُّف هذا السبب. ومن المعاصرين الذين أبانوا عن سبب تحديدهم هذه المقاصد طه جابر العلواني؛ إذ قال: "ومقاصده (القرآن) شيء، والمحاور شيء آخر. فمحاور الخطاب هي عبارة عن الموضوعات الأساسية التي دارت آيات الخطاب القرآني حولها؛ كالتوحيد، رسالة النبي، قصص الأنبياء، الآخرة، وما شاكل ذلك." أمَّا المقاصد عنده فهي التي تغياها القرآن بحيث تمثل غاياته الأساسية التي لا يمكن الإخلال بها، والتي يقول عنها: "هذه الغايات تَوَصلنا إلى أنها ثلاث؛ هي: التوحيد، والتزكية، والعمران." وقد بيَّنَّا تحديدنا للمقاصد الثلاثة العليا على قاعدة أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون والإنسان والحياة، وأنه استخلف الإنسان في الأرض، وأوكل إليه مهمة إعمارها؛ فما يجري على الأرض هو حاصل هذه العلاقة بين الله الخالق المستخلِف، والإنسان المستخلَف، والكون المسخَّر الذي هو ميدان الخلق الإلهي والتسخير والإرادة والعمران، وميدان العقل الإنساني القادر على تحقيق هذا العمران. فالتوحيد يمثل حق الله تعالى على العباد، ومن دونه لا يمكن أن يتحقق شيء من المنظومة كلها، وهو يمثل أيضاً القصد الأعلى من رسالات الأنبياء كافة. وأمَّا التزكية فتعد أهم صفات الإنسان المستخلَف التي تجعله أهلاً للقيام بدور الخليفة، وقادراً على عمارة الأرض؛ وذلك أن الكون لم يُخلق عبثاً، ولم يوجد سُدًى، وإنما خُلِق ليُعمَّر. والقرآن الكريم دارت سوره وآياته حول هذه المقاصد الثلاثة، التي إن أدمجت ساوت العبادة، وإذا فك مفهوم العبادة فإنه سيصل إلى هذه الثلاثة، وبها ترتبط سائر القيم الأخرى."[١٦]

ويرى جاسر عودة –بعد أن استعرض مقاصد القرآن الكريم عند محمد رشيد رضا والقرضاوي والغزالي– أن المقاصد منظومة معقدة، وأنها ليست على نسق أولي بسيط، مثل: الهرم، والشجرة، والدائرة، وأنها –بالتعبير المنظومي المعاصر– أقرب ما تكون إلى ما يُعرَف بالمنظومة الشبكية المختلفة الأنساق والأبعاد؛ أي إنه يمكن النظر إليها من بُعْد الضرورات والحاجيات والتحسينيات على نسق هرمي تتبوأ فيه الضرورات قاعدة الهرم،

[١٦] الرفاعي، **حوار مع طه جابر العلواني تحت عنوان مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص٩٧.

والحاجيات وسطه، والتحسينيات قمته. ويمكن أيضاً النظر إليها من بُعْد العام والخاص والجزئي على نسق هرمي مقلوب تتبوأ فيه الجزئيات أسفل الهرم، وتبنى عليها أبواب الخصوصيات، ثم تبنى العموميات على الخصوصيات. وكذا يمكن النظر إليها من بُعْد الأسس على نسق شجري تتبوأ فيه الأسس موقع الساق من الشجرة، والتفاصيل موقع الفروع، مثل: أسس رشيد رضا العشرة، وأسس القرضاوي السبعة، وأسس العلواني الثلاثة. وكل ذلك جائز في التصور، وعليه من الاستقراء أدلة، ولا يلزم من صحة أحد الأنساق الآنف ذكرها بطلان الآخر، وذلك مقتضى تعدُّد الأبعاد والأنساق، والأبعاد أقرب إلى المرونة في التجديد، والتطوير في البناء المقاصدي المعاصر المنشود.[١٧]

وقد أوافق جاسر عودة على بُعْد النسق الشجري، ولكن يتعيَّن أولاً بيان الأسس التي تحتل موقع الساق من الشجرة. ولعل ما سطّره علال الفاسي وطه جابر العلواني وجمال الدين عطية، وتوافقوا عليه، هو موقع الساق من الشجرة؛ لأن التوافق على الأسس يتيح رد الفروع إلى هذه الأصول، واستشراف رؤية كلية تمثل جملة من المعالم الحضارية. والحقيقة أن التدقيق في جملة آراء العلماء التي نقلنا يؤكد حقاً أنهم اتفقوا جميعاً على المقاصد العليا (التوحيد، التزكية، العمران)، وإن بمسميات أخرى، وأضافوا إليها ما حدَّدوه من عدد يمكن عدّه موقع الفروع من الشجرة كما سيتضح تباعاً في المباحث القادمة.

٢. أهمية مقاصد القرآن الكريم:[١٨]

يمكن إجمال أهمية هذه المقاصد فيما يأتي:

أ. الإحاطة بالمقاصد العامة للتنزيل هي قاعدة متينة من قواعد التدبر، تعصم من شطط التأويل، وزيغ الفهم، وانسداد الأفق، وضيق الحظيرة؛ لذا جاء النعي القرآني على

[١٧] عودة، جاسر. **الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٣م، ص٣٦.

[١٨] ممَّن أجاد وأفاد في بيان أهمية المقاصد:

- الريسوني، قطب. **النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر**، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ٢٠١٠م، ص٤٩٢ وما بعدها.
- الريسوني، **مقاصد المقاصد**، مرجع سابق، ص٢٧ وما بعدها.
- العلواني، طه جابر. **مقاصد الشريعة**، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠١م، ص١٥.

أقوام أعرضوا عن التدبر، فإذا هم في غفلة عن الأسرار، وشغل عن المقاصد، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤). وفي ذلك يقول الشاطبي: "التَّدَبُّرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنِ الْتَفَتَ إِلَى الْمَقَاصِدِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ؛ فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُمْ تَدَبُّرٌ."[١٩]

وقد أكد ابن عاشور أن أعظم وظيفة للمفسر هي الوصول إلى كليات التشريع، وعاب على المفسرين انشغالهم بتقصّي معاني القرآن عن انتزاع كليات التشريع.[٢٠]

ب. الكشف عن مقاصد القرآن يُعِين على فهم مرادات الوحي في العقائد والأخلاق والأحكام على نحوٍ يستميل -بحسب تعبير قطب- النفوس إلى حظيرة الإيمان الجازم، ويسوقها إلى اقتفاء الهداية المودعة في النظم حتى يتحقق معنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ (آل عمران: ١٣٨)، علماً بأن عدم إعمال المقاصد قد حوَّل كثيراً من الجهود عن مسارها كما هو الحال في فهم الأحكام الظاهري، والفهم الفلسفي الجدلي الكلامي في العقائد والأخلاق.

ت. صرف جهود التفسير في وجوه العلم المشروع والبحث المثمر الذي يجعل المقاصد والحكم نَصْب عينيه، وينزوي عن كل قول جاف متجانف عن كتاب الله تعالى، مثل: الإسراف في حل الألفاظ، وإعراب الجمل، والغوص على النكت الفنية، والتوغل في التوجيهات العلمية. فقد انتقد الشاطبي المنحى التفسيري الذي يُغرِق تفسير الآية بمعانٍ بعيدة ومسائل معقدة ليست من مقاصد القرآن في شيء؛ إذ قال: "إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَجَاوَزُوا فِي الدَّعْوَى عَلَى الْقُرْآنِ الْحَدَّ، فَأَضَافُوا إِلَيْهِ كُلَّ عِلْمٍ يُذْكَرُ لِلْمُتَقَدِّمِينَ أَوِ الْمُتَأَخِّرِينَ، مِنْ عُلُومِ الطَّبِيعِيَّاتِ، وَالتَّعَالِيمِ (من الرياضيات والهندسة)، وَالْمَنْطِقِ، وَعِلْمِ الْحُرُوفِ (تفسير المتصوفة الإشاري)... مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُقْصَدْ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِشَيْءٍ مِمَّا زَعَمُوا."[٢١] وبالمثل، فقد انتقد أحمد الريسوني صرف الجهود في غير المقصود كما في تأليف

---

[١٩] الشاطبي، إبراهيم بن موسى. **الموافقات**، تحقيق: مشهور حسن، الخبر: دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٠٩.

[٢٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، المقدمة الأولى، ص١٣.

[٢١] الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٢، ص٢.

كتب عن مبهمات القرآن، فقال: "الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود... ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه."[٢٢]

ث. وضع الأحكام القرآنية في سياقها العام ونصابها الصحيح، وحسم مادة التلاعب بالمضمون القرآني مفردةً وجملةً وسياقاً؛ فمقاصد القرآن الكريم تُرسِّخ المنهجية العلمية. وفي ذلك يقول طه جابر العلواني: "المنهجية كناظم معرفي يردُّ الكثرة إلى الوحدة، والمتشابه إلى المحكم، تتطلب وعياً معرفياً على مناهج التعامل مع النصوص، انطلاقاً من المعرفية المنهجية."[٢٣]

ج. صياغة تصور شامل عن مقاصد التنزيل الكلية لكي تكون مرجعاً حاكماً على فهم القرآن كله؛ وذلك أن من أصول التدبر إرجاع مقاصد السور والمقاطع والآيات إلى المقاصد الكلية، وإرجاع الأغراض الكبرى إلى القرآن؛ بحثاً عن الترابط في سياق جامع ناظم، تُشَدُّ إليه الروابط القرآنية من كل حدب وصوب.

وتأسيساً على ذلك، فقد حذَّر القرآن الكريم من القراءة التشتيتية التي تُفقِد النص قيمته وأثره وفاعليته في حياة الإنسان، ولا سيما أن المشركين وافقوا بعضه، وخالفوا بعضه الآخر، فلم ينتفعوا منه بشيء[٢٤]، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ (الحجر: ٩٠-٩١). وفي ذلك يقول أبو السعود: "والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية -التي هي تفريقُ الأعضاءِ من ذي الروحِ المستلزمُ لإزالة حياته، وإبطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذَيْنِ ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيضُ من المِثليات- للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم."[٢٥]

وهذا التصور الشامل لمقاصد القرآن يُعِين على تحديد رؤية كلية كونية حضارية توصل رسالة القرآن والإسلام إلى الناس؛ فقد اجتهد عبد الحميد أبو سليمان -انطلاقاً

[٢٢] الريسوني، **مقاصد المقاصد**، مرجع سابق، ص٣٠.

[٢٣] العلواني، **مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص٤٨.

[٢٤] الدغامين، زياد. "التكامل المعرفي في القرآن"، **المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية**، مج٩، عدد١/ أ، ٢٠١٣م، ص١٦٦.

[٢٥] أبو السعود، محمد بن محمد. **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)**، بيروت: دار إحياء التراث، ج٥، ص٩٢.

من مقاصد القرآن الكريم- في بيان الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، قائلاً: "إن الرؤية الإسلامية الكونية هي رؤية توحيدية غائية أخلاقية إعمارية خيرية حضارية تُعبِّر عن الفطرة الإنسانية السوية، وهي بذلك، وبالضرورة، رؤية علمية سننية تسخيرية تهدف إلى جعل عناصر الفطرة الإنسانية السوية في بؤرة الوعي الإنساني؛ لتهدي مسيرة الحياة الإنسانية وترشدها؛ كي يحقق الإنسان ذاته السوية في أبعادها الفردية والجماعية، ويستجيب في وسطية واعتدال لحاجتها ومتعها، على مدى أفق الوجود الإنساني بكل أبعاده الروحية والإبداعية العمرانية."[٢٦]

وهذه الرؤية تُحدِّد طبيعة رؤية المسلم للعالم، وكذا طبيعة التعامل مع الآخرين. يقول عبد الحميد في هذا الصدد: "إن ما يميز الرؤية الكونية القرآنية الإعمارية أنها، على العكس من الرؤية المادية العدوانية العنصرية، تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤية توحيدية تكاملية؛ تتكامل فيها مختلف الكيانات، لتكوين علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هي لب الفطرة الإنسانية السوية، ومناط وجودها، واستخلافها في الأرض، فلا مجال فيها للمغالاة الفردية، ولا للتطرف الجماعي، بل هي في كل أبعادها فطرة تكامل وتوازن واعتدال وسلام."[٢٧]

ح. مقاصد القرآن تبدو أشبه بالمبادئ الدستورية، وأساساً للنموذج المعرفي، ويمكن أن تمثل تربة خصبة للمشتركات الإنسانية. وقد بيَّن طه جابر العلواني أهمية المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، ورأى أنها تعد منطلقاً لصوغ النموذج المعرفي المهيأ للإجابة عن الأسئلة الفلسفية المعروفة باسم "النهائية". والأسئلة النهائية، بحسب عبد الوهاب المسيري، هي مجموعة الأسئلة التي تتصل بالخالق -جل شأنه- والإنسان والكون والحياة، والإجابة عنها هي التي تشكل "رؤية الإنسان الكلية" وتصوره الكامل لما تعلقت به الأسئلة النهائية، فإذا صحَّت الإجابة صحَّت الرؤية، وإلا اضطربت بها مسيرة الإنسان في الحياة.[٢٨]

---

[٢٦] أبو سليمان، عبد الحميد. **مختصر كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٤م، ص٢٤.

[٢٧] المرجع السابق، ص٣٠.

[٢٨] انظر:

ويقول العلواني في بيان أهمية مقاصد القرآن الكريم المتعلقة بتأسيس أرضية جامعة للمشترك الإنساني: "المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تمثل بجملتها أو ببعضها على الأقل مشتركات إنسانية، فما من أُمة تُخيَّر بين التزكية والتدسية والتدنس فتختار التدسية والتدنس على التزكية، وما من أُمة تُخيَّر بين العمران والفساد والخراب إلا وتختار العمران."[٢٩]

ثانياً: جهود المعاصرين في بيان مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران

من مقاصد القرآن الأساسية التي تمثل مركز الساق من الشجرة مقصد (عمارة الأرض)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود: ٦١).

ولا يتحقق هذا الإعمار من دون فهم حقيقة الكون وغاية الإنسان فيه؛ فإعماره ليس قاصراً على الشعائر التعبدية، أو ما يشمل مظاهر العبادة المعنوية، ولا على مظاهر الإعمار المادي أيضاً؛ وذلك أن الإعمار عملية شاملة لكل ما يُيسِّر سبل الحياة الإنسانية على الصعيدين المادي والمعنوي، وهو جانب من معاني العبادة.[٣٠] وفي ذلك يقول زياد الدغامين: "إن التعمير المادي يسير مع التعمير المعنوي في آنٍ واحد، لا ينقطع أحدهما عن الآخر، فكما ذكر البيت المعمور وهو بيت الله الحرام في مكة، ذكر "واستعمركم فيها"، فكأن حياة الإنسان لا تستقيم بنوع واحد من العمارة."[٣١]

ويؤكد عمر عبيد حسنة مقصد البناء الحضاري والعمراني للقرآن الكريم بقوله: "موضوع القرآن صياغة الإنسان، ووظيفة الإنسان القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها، لذلك طلب القرآن: النظر،

– المسيري، عبد الوهاب. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م.

– العلواني، **مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص١٥.

[٢٩] المرجع السابق، ص١٧٧.

[٣٠] الدغامين، **التكامل المعرفي في القرآن**، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٣١] الدغامين، زياد. "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، عدد٥٤، خريف ٢٠٠٨م، ص٢٧.

والتدبر، والملاحظة، والاختيار، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ (ص: ٨٨)." ويؤكد حسنة أيضاً أهمية أن يستفيق المسلمون من سباتهم المعرفي والعلمي في حقول العلوم المختلفة لتحقيق مقصد القرآن من الإعمار.[٣٢]

وفيما يأتي بعض مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين:

١. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند محمد رشيد رضا:

قال محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ (الجمعة: ٢): "فآياته المتلوة هي سور القرآن المرشدة إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب عن أميتهم، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السُّنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة."[٣٣]

ثم شرع في بيان ما أسماه مقاصد القرآن، وهي بمعنى المحاور والموضوعات التي جاءت مفصلة في القرآن الكريم، والتي ترجع إلى تلكم الأقطاب الثلاثة، وهي العشرة التي سبق ذكرها.

ومن الملاحظ اهتمام محمد رشيد رضا بالجانب العمراني والحضاري؛ فقد جعل مقصد الآيات القرآنية الإرشاد إلى سنن الله المتعددة في الكون، وجعل مقاصد القرآن الكريم العلم الذي يبني هذه الحضارة، وبيَّن أن الحكمة هي تعلُّم العلوم النافعة التي تُحقِّق مصالح الإنسان.

٢. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند محمد الطاهر بن عاشور:

---

[٣٢] الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**، مصر: دار نهضة مصر للنشر، ط١٤، ٢٠١٤م، المقدمة، ص٣٠.

[٣٣] رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص١٩٢.

اهتم ابن عاشور بمقصد العمران؛ إذ قال: "إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابًا لِصَلَاحِ أَمْرِ النَّاسِ كَافَّةً رَحْمَةً لَهُمْ لِتَبْلِيغِهِمْ مُرَادَ اللَّهِ مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، فَكَانَ الْمَقْصِدُ الْأَعْلَى مِنْهُ صَلَاحَ الْأَحْوَالِ الْفَرْدِيَّةِ، وَالْجَمَاعِيَّةِ، وَالْعُمْرَانِيَّةِ. فَالصَّلَاحُ الْفَرْدِيُّ يَعْتَمِدُ تَهْذِيبَ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتَهَا، وَرَأْسُ الْأَمْرِ فِيهِ صَلَاحُ الِاعْتِقَادِ لِأَنَّ الِاعْتِقَادَ مَصْدَرُ الْآدَابِ وَالتَّفْكِيرِ، ثُمَّ صَلَاحُ السَّرِيرَةِ الْخَاصَّةِ، وَهِيَ الْعِبَادَاتُ الظَّاهِرَةُ كَالصَّلَاةِ، وَالْبَاطِنَةُ كَالتَّخَلُّقِ بِتَرْكِ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالْكِبْرِ.

وَأَمَّا الصَّلَاحُ الْجَمَاعِيُّ فَيَحْصُلُ أَوَّلًا مِنَ الصَّلَاحِ الْفَرْدِيِّ إِذِ الْأَفْرَادُ أَجْزَاءُ الْمُجْتَمَعِ، وَلَا يَصْلُحُ الْكُلُّ إِلَّا بِصَلَاحِ أَجْزَائِهِ، وَمِنْ شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ ضَبْطُ تَصَرُّفِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ عَلَى وَجْهٍ يَعْصِمُهُمْ مِنْ مُزَاحَمَةِ الشَّهَوَاتِ وَمُوَاثَبَةِ الْقُوَى النَّفْسَانِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ عِلْمُ الْمُعَامَلَاتِ، وَيُعَبَّرُ عَنْهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ بِالسِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ.

وَأَمَّا الصَّلَاحُ الْعُمْرَانِيُّ فَهُوَ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِك إِذْ هُوَ حِفْظُ نِظَامِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَضَبْطُ تَصَرُّفِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَقَالِيمِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ عَلَى وَجْهٍ يَحْفَظُ مَصَالِحَ الْجَمِيعِ، وَرَعْيُ الْمَصَالِحِ الْكُلِّيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَحِفْظُ الْمَصْلَحَةِ الْجَامِعَةِ عِنْدَ مُعَارَضَةِ الْمَصْلَحَةِ الْقَاصِرَةِ لَهَا، وَيُسَمَّى هَذَا بِعِلْمِ الْعُمْرَانِ وَعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ."[٣٤] ثم شرع في بيان محاور القرآن الكريم وموضوعاته التي تخدم تلك المقاصد، وقد أسماها مقاصد القرآن.

ومن مظاهر اهتمام ابن عاشور بمقصد الحضارة والعمران ما أورده في الفائدة الثامنة من ذكر القصص القرآني؛ إذ قال: "أَنْ يُنْشِئَ فِي الْمُسْلِمِينَ هِمَّةَ السَّعْيِ إِلَى سِيَادَةِ الْعَالَمِ كَمَا سَادَهُ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِهِمْ لِيَخْرُجُوا مِنَ الْخُمُولِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ إِذْ رَضُوا مِنَ الْعِزَّةِ بِاغْتِيَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَكَانَ مُنْتَهَى السَّيِّدِ مِنْهُمْ أَنْ يَغْنَمَ صُرَيْمَةً، وَمُنْتَهَى أَمَلُ الْعَامِّيِّ أَنْ يَرْعَى غُنَيْمَةً، وَتَقَاصَرَتْ هِمَمُهُمْ عَنْ تَطَلُّبِ السِّيَادَةِ حَتَّى آلَ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ فَقَدُوا عِزَّتَهُمْ فَأَصْبَحُوا كَالْأَتْبَاعِ لِلْفُرْسِ وَالرُّومِ، فَالْعِرَاقُ كُلُّهُ وَالْيَمَنُ كُلُّهُ وَبِلَادُ الْبَحْرَيْنِ تَبَعٌ لِسِيَادَةِ الْفُرْسِ، وَالشَّامُ وَمَشَارِفُهُ تَبَعٌ لِسِيَادَةِ الرُّومِ، وَبَقِيَ الْحِجَازُ وَنَجْدٌ لَا غُنْيَةَ لَهُمْ عَنِ الِاعْتِزَازِ بِمُلُوكِ الْعَجَمِ وَالرُّومِ فِي رِحْلَاتِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ."[٣٥]

---

[٣٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٣٨.

[٣٥] المرجع السابق، ج١، ص٦٧.

وذكر من فوائد القصص، كما في الفائدة العاشرة، ما ملخصه أن إيراد تلك القصص يحصل منه بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة، وذلك يُفتّق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية، مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (يوسف: ٧٦)، في قراءة مَن قرأ (دِينِ) بكسر الدال؛ أي: في شرع فرعون يومئذٍ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تُخوِّل استرقاق السارق... .[٣٦]

وتتجلَّى مظاهر اهتمام ابن عاشور بهذا المقصد في تفسير آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨). يقول ابن عاشور في دلالات معنى "المتين": "الْمَتِينُ: كَمَالٌ فِي قُوَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يُعَارَضُ وَلَا يُدَانَى. فَالْمَعْنَى أَنَّهُ الْمُسْتَغْنِي غِنًى مُطْلَقًا فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، فَلَا يَكُونُ خَلْقُهُ الْخَلْقَ لِتَحْصِيلِ نَفْعٍ لَهُ، وَلَكِنْ لِعِمْرَانِ الْكَوْنِ، وَإِجْرَاءِ نِظَامِ الْعُمْرَانِ بِاتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَجْمَعُهَا مَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)."

- قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (النمل: ٢٢). يقول ابن عاشور في معرض تفسيره للآية الكريمة: "ابْتِدَاؤُهُ بِأَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ تَنْبِيهٌ لِسُلَيْمَانَ بِأَنَّ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ مَمَالِكَ وَمُلُوكًا تُدَانِي مُلْكَهُ أَوْ تَفُوقُهُ فِي بَعْضِ أَحْوَالِ الْمُلْكِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَلًا لَهُ، كَمَا جَعَلَ عِلْمَ الْخَضِرِ مَثَلًا لِمُوسَى عليه السلام لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِانْتِهَاءِ الْأَمْرِ إِلَى مَا بَلَغَهُ هُوَ. وَفِيهِ اسْتِدْعَاءٌ لِإِقْبَالِهِ عَلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ بِشَرَاشِرِهِ لِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الْمَطْلَعِ فِي الْكَلَامِ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ وَالْأُمَمِ مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْنَى بِهِ مُلُوكُ الصَّلَاحِ لِيَكُونُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ بِمَا يُفَاجِئُهُمْ مِنْ تِلْقَائِهَا، وَلِتَكُونَ مِنْ دَوَاعِي الِازْدِيَادِ مِنَ الْعَمَلِ النَّافِعِ لِلْمَمْلَكَةِ بِالِاقْتِدَاءِ بِالنَّافِعِ مِنْ أَحْوَالِ غَيْرِهَا وَالِانْقِبَاضِ عَمَّا فِي أَحْوَالِ الْمَمْلَكَةِ مِنَ الْخَلَلِ بِمُشَاهَدَةِ آثَارِ مِثْلِهِ فِي غَيْرِهَا. فَأَخْبَارُ الْأَقْطَارِ مِمَّا تُنْفِقُ فِيهِ الْمُلُوكُ أَسْمَارَهَا، وَتُرَقِّمُ بِبَدِيعِ هَالَاتِهِ أَقْمَارَهَا، وَتَسْتَفِيدُ مِنْهُ حُسْنَ السِّيَرِ، وَالْأَمْنَ مِنَ الْغِيَرِ، فَتَسْتَعِينُ عَلَى الدَّهْرِ بِالتَّجَارِبِ.. وَتَسْتَدِلُّ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ."[٣٧]

---

[٣٦] المرجع السابق، ج٢٧، ص٢٩.

[٣٧] المرجع السابق، ج١٩، ص٢٥٠.

- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النمل: ٨٨). يقول ابن عاشور في معرض تفسيره للآية الكريمة: "هَذَا اسْتِدْعَاءٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ لِتَتَوَجَّهَ أَنْظَارُهُمْ إِلَى مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنْ دَقَائِقِ الْحِكْمَةِ وَبَدِيعِ الصَّنْعَةِ. وَهَذَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أُودِعَ فِي الْقُرْآنِ لِيَكُونَ مُعْجِزَةً مِنَ الْجَانِبِ الْعِلْمِيِّ يُدْرِكُهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، كَمَا كَانَ مُعْجِزَةً لِلْبُلَغَاءِ مِنْ جَانِبِهِ النَّظْمِيِّ."[٣٨]

٣. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند علال الفاسي:

يرى علال الفاسي أن المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل والعمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع. يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠): "فهذه الآية تدل على أن المقصود من استخلاف الإنسان في الأرض هو قيامه بما طوق به من إصلاحها، والمراد بالإصلاح هنا إصلاح أحوال الناس لا مجرد صلاح العقيدة. وهذا الإصلاح هو الذي دعا إليه الرسل، وظلوا يعملون على تربية الناس عليه عن طريق التذكير بالفطرة، وما جُبِل عليه الإنسان بصفته إنساناً ذا عقل ولغة وتكليف، فلنسمع لموسى يقول لأخيه هارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وهذا ما يمكن تسميته إصلاح الفساد السياسي. وشعيب يقول لأهل مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (الأعراف: ٨٥)، وهذا يندرج ضمن الإصلاح للفساد الاقتصادي. ونادى القرآن بالإصلاح للفساد الاجتماعي عند قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢-٢٣)."[٣٩]

---

[٣٨] المرجع السابق، ج٢٠، ص٤٨.

[٣٩] الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، مرجع سابق، ص٤٥-٤٦ بتصرف.

٤. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند محمد الغزالي:

حرص الشيخ الغزالي -رحمه الله- على تجلية مقصد القرآن في البناء الحضاري والعمران في جميع كتبه، وأظهرها ما سطره في كتابيه: (كيف نتعامل مع القرآن؟)، و(المحاور الخمسة للقرآن الكريم)؛ إذ قال: "هذا القرآن يُكلِّم الرجال ليعيد صياغتهم، ويُكلِّم الأحياء ليُحقِّق استجابتهم، ويُكلِّم العقلاء ليُوجِّه وعيهم، فيجعل منهم أُمة تحمل رسالتها... وفعلاً حملت الأُمة رسالتها؛ لأنها فهمت المقصود من إرسال المعجزة الأخيرة، وأدركت أبعادها، وتدبرت مقاصدها، معجزة إنسانية تتصل بإحياء المواهب الإنسانية، وتفجير الطاقة البشرية لهذا الخلق، وإعادة بناء وتشكيل العقل الإنساني."[٤٠]

ويظهر اهتمام الغزالي بهذا المقصد من زوايا عدَّة، منها:

أ. تناول المحاور التي يدور عليها القرآن الكريم في كتاب (المحاور الخمسة للقرآن الكريم)، واعتبار هذه المحاور تتناسق بصورة تكاملية لتبني أُمة حضارية. "فالمحاور التي يقوم عليها القرآن ليست مقسمة على أساس أن هذا المحور لكذا، وذاك المحور لكذا، ولكن نحن بجهدنا العقلي نجيء لآية واحدة أو لطائفة من الآيات يمكن أن تكون في قضية واحدة، فنرى أن هذه القضية الواحدة تماسكت الآيات فيها على عدَّة محاور من الكلام عن الله، والكون، والجزاء، والنفس البشرية، والإيمان، والأخلاق تماسكاً غريباً لا يُعرَف إلا في هذا القرآن، وهذا يجعلنا نُقدِّم التصور الحضاري للقرآن على أنه يبني أُمة، ويفتح أبصارها على الكون، ويمنحها الرؤية المتميزة التي تُمكِّنها من الشهود الحضاري على مختلف الأصعدة."[٤١]

ب. الدعوة إلى إدراك السنن الآلهية في الأنفس والآفاق (مثل: سُنَّة التدرج، وسُنَّة الأجل، وسُنَّة التداول الحضاري، وسنن المدافعة، وسنن التسخير)،[٤٢] وتبيان أهمية إدراكها. "السنن هي القانون المطرد، فلقد تحدَّث القرآن عن السنن التي تُسيِّر الحياة والأحياء، وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية؛ سنن سقوط الأُمم

---

[٤٠] الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، مرجع سابق، ص٤٧.

[٤١] الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٦٥.

[٤٢] الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، مرجع سابق، ص١٨٤-٢١١.

ونهوضها، وغالباً ما يجيء في أعقاب القصص القرآني، وأكد القرآن أن هذه السنن جارية على الناس جميعاً، وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لا بُدَّ منه للشهود الحضاري (عمارة الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، الشهادة والقيادة للناس)؛ استجابةً لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)... واكتشاف السنن هو الذي مكَّن من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف، وبالتالي أصبحوا مسخَّرين بدل أن يكونوا مسخِّرين."[٤٣] يقول عبد الحليم عويس في مقدمته لكتاب الغزالي: "المقصد العام من وجود القصص القرآني أن يفهم المسلمون سنن الله الكونية والاجتماعية، وألا يحاولوا القفز من فوق السنن، وأن يعوا أنهم لن يُمكَّنوا في الأرض إلا إذا تفاعلوا التفاعل الصحيح مع هذه السنن... وأن يفهموا أيضاً أن التاريخ ذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل، وهو (الكمبيوتر) الذي يُغذِّي الحاضر بالمعلومات الصحيحة، فيمكن الوصول إلى القرار المستقبلي الصحيح."[٤٤]

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى وجود دراسات قيِّمة تعنى باستكشاف سنن الله في النفس -كما دعا إليها الشيخ محمد الغزالي وأكد- مثل سُنَّة الإصلاح كما في دراسة التيجاني عبد القادر: "الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية"،[٤٥] فضلاً عن وجود دراسات حاولت استخلاص القيم الحضارية في قصص القرآن الكريم، مثل دراستي زكريا علي الخضر: "القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ"،[٤٦] و"القيم الحضارية في قصة سيدنا شعيب".[٤٧]

ت. الدعوة إلى الانتقال من إدراك السنن القرآنية إلى عملية التسخير.[٤٨]

ث. انتقاد قَصْر الاهتمام بالقصص القرآني على الناحية البلاغية، وعدم إعمال الدرس الحضاري من هذه القصص، وإدراج هذا القصور في أزمة الفكر المتعلقة بانقلاب الوسائل إلى غايات، والغفلة عن غايات القرآن الكريم.

---

[٤٣] المرجع السابق، ص١٨٤.

[٤٤] المرجع السابق، ص٦.

[٤٥] نُشِرت في مجلة إسلامية المعرفة، العدد٦٦، ٢٠١١م.

[٤٦] نُشِرت في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، م٦، العدد١، ٢٠١٠م.

[٤٧] نُشِرت في مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، الجامعة الأردنية، م٤٣، ملحق١، ٢٠١٦م.

[٤٨] الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، مرجع سابق ، ص٩٦.

ج. انتقاد قَصْر دلالة الفقه على المعنى الفقهي الاصطلاحي، بالرغم من أن عملية الفقه استُخدِمت في القرآن الكريم لمعنى أوسع كثيراً من المعنى الاصطلاحي الفقهي، هو الفقه الحضاري.[٤٩]

ح. إدخال عمارة الأرض والبناء الحضاري في مفهوم الإيمان. "إن الكون في الفلسفة القرآنية نفيس القيمة غالٍ عند صاحبه، لا لأنه بذل فيه جهداً، أو دفع ثمناً، كلا (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)؛ إن غلاءه راجع إلى دلاته على خالقه، فقد بُنِي لبنةً لبنةً بالحق، وانتظمت أرجاءَه قوانينُ محكمة، وتجلَّى فيها المجد الآلهي في أبهى صوره. قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ (الأحقاف: ٣)... ولن يحسن معرفةَ الله امرؤٌ يعمى عن سنن الحق، ولن يخدم رسالاتِ الله جهولٌ بهذه السنن، وإنه لمن المزعج أن يعيش سواد المؤمنين في هذه السنين العجاف مسخَّراً في الأرض، والمفروض أن الله سخَّر له ما في السموات والأرض."[٥٠]

ويؤكد الغزالي هذا المعنى بقوله: "إن انفتاح المرء على الكون، وفقهه لما فيه، واستمكانه منه، هو التوجيه القرآني الأوحد لجملة العقائد والمعالم التي يقوم الدين عليها."[٥١] ويتابع في موضع آخر قائلاً: "إن دراسة الكون نهج قرآني واضح لبناء الإيمان أولاً، ولدعمه وحراسته ثانياً، ولمنافع البشر ومتاعهم ثالثاً، ومع ذلك فإن أجيالاً كثيفة غلقت مشاعرها دون الدراسة... إن الإيمان –كما يفهم من القرآن– قدرة على الحياة في جميع دروبها، قدرة علمية ومادية يصحبها تطويع كل شيء لإرضاء الله وابتغاء وجهه."[٥٢] ومن المقولات الجميلة المنقولة عن الغزالي في هذا الصدد قوله: "إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد... والمسلم مُكلَّف بإصلاح كل عمل، أو عمل كل صالح."[٥٣]

---

[٤٩] المرجع السابق، ص١٠٩.

[٥٠] المرجع السابق، ص٥٣.

[٥١] المرجع السابق، ص٥٦.

[٥٢] المرجع السابق، ص٦١.

[٥٣] نُسِبت إلى الغزالي في أكثر من موقع إلكتروني في كتابه "الطريق من هنا"، وبعد بحثٍ في الكتاب المذكور لم أظفر بها.

خ. ربط معنى الحكمة الواردة في السياق القرآني بالجانب الحضاري والعمراني؛ إذ يرى الغزالي أن الحكمة التي وردت في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن مفردة أو مع الكتاب، مثل قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ (آل عمران:٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ (لقمان: ١٢)، هي ما يستفاد من التعاليم القرآنية؛ أي وضع الأمر في موضعه. يقول في ذلك: "إن الميزان هو الناحية العملية، والحكمة هي الناحية النظرية في ذلك، فمجموعة الآيات التي وردت فيها الحكمة والميزان تعطينا منهجاً أن الأُمة لا بُدَّ أن يكون لها من الرؤية القرآنية التي تستنبطها أو تستدركها من مجموع الآيات سياسة قرآنية: كيف تحكم الشعب؟ وكيف تنزلها على واقع الناس؟ أي: كيف ينزل الفكر القرآني على واقع عملي؟"[٥٤]

ويمكن تلخيص ما قاله الغزالي في معنى الحكمة بلفظ آخر، هو تكوين الرؤية، وهذه الرؤية هي ثمرة وخلاصة لإعمال المقاصد التي تحمل الجانبين: الفكري والنظري.

٥. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند طه جابر العلواني:

سبق أن بيَّنَّا المقاصد العليا الحاكمة عند العلواني، التي جعلها في ثلاثة مقاصد (التوحيد، والتزكية، والعمران)، والتي خصَّ الجانب العمراني والبناء الحضاري منها ليكون القدح المعلى في المنظومة القرآنية. وقد ظهر اهتمام العلواني بهذا الشأن في أمور عدَّة، منها:

أ. إدخال الاستخلاف والإعمار في مفهوم العبادة. "فالعبادة التي جعلها الله غاية الحق من إيجاد الخلق أمر مركب من العبادة بمعناها الخاص والاستخلاف والنصرة والإعمار، فهي ليست أمراً بسيطاً لا يشتمل على معنى واحد، والله أعلم."[٥٥]

ب. إدخال فروض الكفايات وكل متطلبات التزكية والعمران ضمن مفهوم العبادة المجتمعية.[٥٦]

---

[٥٤] الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٥٥] العلواني، **مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص١٨٣.

[٥٦] المرجع السابق، ص١٨٢.

ت. تضمين العلواني مفهوم الإيمان الجانب العمراني والحضاري، مُعلِّقاً على حديث أَبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ."[٥٧] فقال: "فإماطة الأذى عن الطريق أو إنارته وتسويته تدخل في قواعد تنظيم الخدمات والمرافق العامة، فإدراجها تحت مفهوم الإيمان لبيان مزيد من الاهتمام بها، وإيجاد الحوافز والدوافع الذاتية للقيام بها."[٥٨]

ث. إعمال المقاصد العليا الحاكمة في الواقع المعيش يثمر نهوضاً حضارياً في مختلف الأصعدة. وفي هذا المعنى يقول فتحي ملكاوي: "لو تحقق الجمع بين التوحيد والتزكية والعمران سوف تصبح الآيات الكونية، والآيات النفسية، والآيات الاجتماعية، والآيات التاريخية، وكل آيات القرآن الكريم عناوين لموضوعات التفكر والتدبر والاعتبار، وموضوعات للمشاريع البحثية المتعمقة التي توسع فضاءات العلم يوماً بعد يوم، وتجعل الأُمة المسلمة في موقع الخيرية والقيادة والريادة."[٥٩]

٦. مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند جاسر عودة:

دعا جاسر عودة في كثير من كتاباته المتخصصة في مقاصد الشريعة إلى إعادة النظر بإخراج مقاصد الشريعة من تصورها التقليدي إلى ما يسمى رؤية العالم، عن طريق تبنيه علم المنظومات، مستفيداً من سمات فلسفة المنظومات، مثل: المعرفية، والشمولية، وتعدد الأبعاد، والانفتاح، والغائية.[٦٠] فقد دعا -ضمن هذه الرؤية- في بحثه: "الاجتهاد في تصور مقاصد الشريعة: نظرية الضرورات نموذجاً" إلى إعادة صياغة مقاصد الشريعة

---

[٥٧] ابن الحجاج، مسلم. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، حديث رقم٣٥، ج١، ص٦٣.

[٥٨] العلواني، **مقاصد القرآن**، مرجع سابق، ص١٨٣.

[٥٩] ملكاوي، فتحي. **مختصر البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٢.

[٦٠] عودة، جاسر. **مقاصد الشريعة كفلسفة للتشريع الإسلامي: رؤية منظومية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٢م. انظر مراجعة كاملة للكتاب في:

- **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد٧٩/ شتاء ٢٠١٥م، بحث ماهر حصوة، ص١٧٥-١٩٠.

المتعلقة بالضروريات الخمس ضمن رؤية العالم وحاجاته الحضارية بالانتقال من حفظ النسل في إطاره التقليدي إلى مفهوم بناء الأسرة، ومن حفظ المال إلى التنمية الاقتصادية، ومن حفظ النسل والعرض إلى حفظ حقوق الإنسان، ومن حفظ العقل إلى نماء الملكات العقلية والفكرية، ومن حفظ الدين إلى كفالة الحريات الدينية.[٦١]

وقد بنى عودة على ما جاء في بحث سيف الدين عبد الفتاح تحت عنوان "نحو تفعيل النموذج المقاصدي في المجال السياسي والاجتماعي" إلى: مقاصد الشريعة الإسلامية: دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق"؛ إذ رأى عبد الفتاح أن المقاصد الكلية ليست إلا صياغة لمفهوم متكامل للتنمية من منظور حضاري. فقد اقتنص عودة هذه الفكرة، وبنى عليها، وعَدَّها إضافة قيِّمة تحتاج إلى بحث وتأصيل حتى تُربَط بالنصوص الشرعية، وتُفسَّر بها مصطلحات المقاصد تفسيراً جديداً، أو تكون سبيلاً لتقديم مصطلحات مقاصدية جديدة أقرب إلى رؤية العالم فيما يصلح للناس.[٦٢]

والإضافة التي اقترحها الباحث في هذا السياق تتمثل في أن تقارير الأمم المتحدة – في الأعوام الأخيرة– تفيد بأن معظم الدول الإسلامية (تمثل ٩٠% من إجمالي عدد المسلمين) تُصنَّف ضمن مستوى أقل من المتوسط بحسب مقياس التنمية البشرية (يمثل المفهوم الأوسع من التنمية الاقتصادية) الذي تستخدمه لجنة التنمية في الأمم المتحدة ضمن تدرجات عدَّة لمستويات الصحة، ومحو الأمية، والمشاركة السياسية، وتفعيل دور المرأة، وسلامة البيئة، إضافةً إلى مستوى المعيشة. وبناءً على هذه المرونة التي يتمتع بها مصطلح المقاصد، فإنه يمكن صياغة مقصد للتنمية البشرية يكون له تميزه بإضافة مقاييس إسلامية تُعبِّر عن قيم الإسلام الأصيلة.[٦٣]

وهذه الإضافة التي اقترحها عودة أرى أنها تمثل معياراً واقعياً لمقصد العمران (ضمن مقاصد القرآن)؛ ما يؤكد أن إظهار مقاصد القرآن العليا يعد وسيلة تواصل حضاري، ويعزز المشترك الإنساني، فلا أحد يختلف على أهمية النهوض بمستوى المعيشة، وحقوق المرأة، والتعليم، والصحة، وسلامة البيئة، إلى غير ذلك مما جاء في معايير قياس التنمية

[٦١] عودة، **الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي**، مرجع سابق، ص١٥-٣٠.

[٦٢] المرجع السابق، ص٢٤.

[٦٣] عودة، **الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي**، مرجع سابق،ص٢٥.

البشرية، من دون إغفال أثر المساهمة الفكرية في تعزيز تلك المعايير وتقويمها بالحوار والإقناع من منطلق الثوابت والقيم الإسلامية، مع احترام الجانب الثقافي لكل أُمة.

ثالثاً: مقصد تقويم الفكر عند المعاصرين

يعد تقويم الفكر أحد تفرعات مقاصد القرآن في العمران. وفي نظرة متفحصة للآيات القرآنية التي تدعو إلى التفكير، والتعقل، والتذكر، والتبصر، والنظر، والاعتبار، والتفقه، ومخاطبة أولي الألباب؛ نجد أن عددها (٦٩٦) آية، ورد فيها ذكر لذلك (٦٧٨) مرة، بنسبة (١٠,٣%)، وهذه النسبة هي نسبة عالية لمنهاج احتوى الحياة كلها.[٦٤]

وقد اهتم المعاصرون بتجلية هذا المقصد؛ إذ أفرد له محمد عوام بحثاً سمَّاه "مقصد إصلاح التفكير الإنساني في القرآن"، ومن جملة ما جاء فيه قوله: "وقد تحصَّل لديَّ مما سبق أن القرآن المجيد له قصد في إصلاح التفكير الإنساني عن طريق النظر والتفكر، فهو بذلك يؤسس لمنهج النظر العقلي المبني على الاستدلال، وعلاقة الشاهد بالغائب، وكيفية الانتقال من المحسوس إلى الاستدلال به على الغائب، والمقصود من ذلك كله معرفة الخالق جل جلاله، كما يؤسس في الوقت ذاته من خلال حكاية قصص الأولين منهجاً للتاريخ مبنياً على المقايسة من أجل الاعتبار والاتعاظ."[٦٥]

ومن جميل استدلالات عوام ما ذهب إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء: ٥١) في بيان معنى الرشد؛ إذ قال: "ذهب المفسرون في ذلك -تفسير معنى الرشد- مذاهب شتى، والذي تحصَّل لي من ذلك، ومن تجديد النظر والتأمل في مناظرة إبراهيم لقومه، أنه رشد المنهج، وسداد التفكير، وهذا ما يومئ إليه لفظ الرشد في هذا السياق... فقد لقَّن الله نبيه إبراهيم الحجة، وعلَّمه كيفية الاحتجاج والاستدلال، وفيه تنبيه إلى أن من مقاصد القرآن الكريم أن يرشد الناس، ويُعلِّمهم الحجج وطرق الاستدلال، ويفتح عقولهم على كيفية استعمال

[٦٤] نجادت، أحمد محمد، والعمري، حسن محمد. "مضامين التفكير وضوابطه واستراتيجيات تنميته في القرآن"، **مجلة العلوم الشرعية**، جامعة القصيم، مج٧، عدد٢، فبراير ٢٠١٤م، ص٨٤٩.

[٦٥] عوام، محمد. "مقصد إصلاح التفكير الإنساني في القرآن الكريم"، **مؤتمر مقاصد القرآن الكريم**، تحرير: محمد سليم العوا، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة، ط١، ٢٠١٦م، ص٥٤٩.

الحجج والبراهين، ثم هم –بالعقول التي ركزت فيهم، وبفطرهم السليمة– سيهتدون إلى غيرها من الطرق العلمية، أو يبنون عليها، وينشئون ويبتكرون مسالك جديدة تؤدي الغرض نفسه."[٦٦]

١. مقصد تقويم الفكر عند محمد رشيد رضا:

تناول محمد رشيد رضا هذا المقصد عند تفصيله المقصد الثالث من مقاصد القرآن بقوله: "إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام بجعل الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال."[٦٧] ومعلوم أن القرآن الكريم إذ يُبيِّن مكانة الفطرة والحكمة والعقل والفكر والعلم والبرهان... فإنما قصده في ذلك تثبيت هذه المكانة، والحث على رعايتها، وتحصيل مفعولها.

وقد نقل محمد رشيد رضا عن شيخه الإمام محمد عبده المقصود بالحكمة، فقال: "وَالْمُرَادُ بِإِيتَائِهِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ– إِعْطَاؤُهُ آلَتُهَا الْعَقْلُ كَامِلَةً مَعَ تَوْفِيقِهِ لِحُسْنِ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْآلَةِ فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ؛ فَالْعَقْلُ هُوَ الْمِيزَانُ الْقِسْطُ الَّذِي تُوزَنُ بِهِ الْخَوَاطِرُ وَالْمُدْرَكَاتُ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ أَنْوَاعِ التَّصَوُّرَاتِ وَالتَّصْدِيقَاتِ، فَمَتَى رَجَحَتْ فِيهِ كِفَّةُ الْحَقَائِقِ طَاشَتْ كِفَّةُ الْأَوْهَامِ، وَسَهُلَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْوَسْوَسَةِ وَالْإِلْهَامِ."

أَقُولُ (أي محمد رشيد رضا): "وَهَذَا الْقَوْلُ يَتَّفِقُ مَعَ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ الْفِقْهُ فِي الْقُرْآنِ؛ أَيْ مَعْرِفَةُ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى، وَالْأَحْكَامِ بِعِلَلِهَا وَحِكَمِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِقْهَ هُوَ أَجَلُّ الْحَقَائِقِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي النَّفْسِ الْمَاحِيَةِ لِمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْوَسَاوِسِ حَتَّى لَا تَكُونَ مَانِعَةً مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ فَقِهَ مَا وَرَدَ فِي الْإِنْفَاقِ وَفَوَائِدِهِ وَآدَابِهِ مِنَ الْآيَاتِ لَا يَكُونُ وَعْدُ الشَّيْطَانِ لَهُ بِالْفَقْرِ وَأَمْرُهُ إِيَّاهُ بِالْبُخْلِ مَانِعًا لَهُ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الْفِقْهَ فِي الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِكَمَالِ الْعَقْلِ وَحُسْنِ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْفَهْمِ وَالْبَحْثِ عَنْ فَوَائِدِ الْأَحْكَامِ وَعِلَلِهَا وَدَلَائِلِ الْمَسَائِلِ وَبَرَاهِينِهَا، فَالْخَبَرُ: فَسَّرَ الْحِكْمَةَ بِالْأَخَصِّ؛ رِعَايَةً

[٦٦] المرجع السابق، ص٥٤٠–٥٤١ بتصرف.

[٦٧] رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص٢٥٧.

لِلْمَقَامِ. وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فَسَّرَهَا بِالْأَعَمِّ؛ بَيَاناً لِشُمُولِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ. فَالْآيَةُ بِإِطْلَاقِهَا رَافِعَةٌ لِشَأْنِ الْحِكْمَةِ بِأَوْسَعِ مَعَانِيهَا، هَادِيَةً إِلَى اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ فِي أَشْرَفِ مَا خُلِقَ لَهُ. وَمَنْ رُزِئَ بِالتَّقْلِيدِ كَانَ مَحْرُوماً مِنْ ثَمْرَةِ الْعَقْلِ وَهِيَ الْحِكْمَةُ، مَحْرُوماً مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ لِصَاحِبِ الْحِكْمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩)، فَيَكُونُ كَالْكُرَةِ تَتَقَاذَفُهُ وَسْوَسَةُ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَجَهَالَةُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ قَدْ يَسْتَغْنِي بِعُقُولِ النَّاسِ عَنْ عَقْلِهِ... ."[٦٨]

٢. مقصد تقويم الفكر عند ابن عاشور:

يظهر اهتمام ابن عاشور بهذا المقصد جلياً في كثير مما سطره؛ إذ:

أ. ذكر في المقصد الأول من مقاصد القرآن التي دل عليها استقراؤه أهمية الاستناد إلى الدليل، فقال: "صَلَاحُ الِاعْتِقَادِ وَتَعْلِيمُ الْعَقْدِ الصَّحِيحِ، وَهَذَا أَعْظَمُ سَبَبٍ لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ يُزِيلُ عَنِ النَّفْسِ عَادَةَ الْإِذْعَانَ لِغَيْرِ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَيُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الْأَوْهَامِ... ."[٦٩]

ب. ذكر في المقصد السادس ما يؤكد أن من مقاصد القرآن الأساسية تقويم الفكر: "التَّعْلِيمُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَةَ عَصْرِ الْمُخَاطَبِينَ، وَمَا يُؤَهِّلُهُمْ إِلَى تَلَقِّي الشَّرِيعَةِ وَنَشْرِهَا، وَذَلِكَ عِلْمُ الشَّرَائِعِ، وَعِلْمُ الْأَخْبَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَبْلَغَ عِلْمِ مُخَالِطِي الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ زَادَ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ تَعْلِيمَ حِكْمَةِ مِيزَانِ الْعُقُولِ، وَصِحَّةِ الِاسْتِدْلَالِ فِي أَفَانِينِ مُجَادَلَاتِهِ لِلضَّالِّينَ، وَفِي دَعْوَتِهِ إِلَى النَّظَرِ، ثُمَّ نَوَّهَ بِشَأْنِ الْحِكْمَةِ، فَقَالَ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (الْبَقَرَة: ٢٦٩)، وَهَذَا أَوْسَعُ بَابٍ انْبَجَسَتْ مِنْهُ عُيُونُ الْمَعَارِفِ، وَانْفَتَحَتْ بِهِ عُيُونُ الْأُمِّيِّينَ إِلَى الْعِلْمِ، وَقَدْ لَحِقَ بِهِ التَّنْبِيهُ الْمُتَكَرِّرُ عَلَى فَائِدَةِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَطْرُقْ أَسْمَاعَ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّمَا قُصَارَى عُلُومِهِمْ أُمُورٌ تَجْرِيبِيَّةٌ، وَكَانَ حُكَمَاؤُهُمْ أَفْرَادًا اخْتُصُّوا بِفَرْطِ ذَكَاءٍ تُضَمُّ إِلَيْهِ تَجْرِبَةٌ وَهُمُ الْعُرَفَاءُ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، (﴿قُلْ

---

[٦٨] رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٣، ص٦٤.

[٦٩] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠.

هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، وَقَالَ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ (الْقَلَم: ١)، فَنَبَّهَ إِلَى مَزِيَّةِ الْكِتَابَةِ."[٧٠]

ت. ذكر في مقدمته ثمانية مقاصد دل عليها استقراؤه. وعند تفسيره الآية السابعة من سورة آل عمران استدرك ليضيف مقصدين بقوله: "على أَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ أَمْرَيْنِ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا كَوْنُهُ شَرِيعَةً دَائِمَةً، وَذَلِكَ يَقْتَضِي فَتْحَ أَبْوَابِ عِبَارَاتِهِ لِمُخْتَلِفِ اسْتِنْبَاطِ الْمُسْتَنْبِطِينَ، حَتَّى تُؤْخَذَ مِنْهُ أَحْكَامُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، وَثَانِيهِمَا تَعْوِيدُ حَمَلَةِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَعُلَمَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بِالتَّنْقِيبِ، وَالْبَحْثِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَقَاصِدِ مِنْ عَوِيصَاتِ الْأَدِلَّةِ، حَتَّى تَكُونَ طَبَقَاتُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ صَالِحَةً -فِي كُلِّ زَمَانٍ- لِفَهْمِ تَشْرِيعِ الشَّارِعِ وَمَقْصِدِهِ مِنَ التَّشْرِيعِ، فَيَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ، وَلَوْ صِيغَ لَهُمُ التَّشْرِيعُ فِي أُسْلُوبٍ سَهْلِ التَّنَاوُلِ لَاعْتَادُوا الْعُكُوفَ عَلَى مَا بَيْنَ أَنْظَارِهِمْ فِي الْمُطَالَعَةِ الْوَاحِدَةِ. مِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَتْ صَلُوحِيَّةُ عِبَارَاتِهِ لِاخْتِلَافِ مَنَازِعِ الْمُجْتَهِدِينَ قَائِمَةً مَقَامَ تَلَاحُقِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي تَدْوِينِ كُتُبِ الْعُلُومِ، تَبَعاً لِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْعُصُورِ."[٧١]

ث. أشار إلى مسائل تتعلق بمقصد تقويم الفكر في ثنايا تفسيره الآيات القرآنية، مثل:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ (الإسراء: ٣٦). يقول ابن عاشور مستدلاً على البناء على الثابت، وعدم الاستناد إلى الموهوم: "هَذَا أَدَبٌ خُلُقِيٌّ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَيْضاً إِصْلَاحٌ عَقْلِيٌّ جَلِيلٌ يُعَلِّمُ الْأُمَّةَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ مَرَاتِبِ الْخَوَاطِرِ الْعَقْلِيَّةِ بِحَيْثُ لَا يَخْتَلِطُ عِنْدَهَا الْمَعْلُومُ وَالْمَظْنُونُ وَالْمَوْهُومُ. ثُمَّ هُوَ أَيْضاً إِصْلَاحٌ اجْتِمَاعِيٌّ جَلِيلٌ يُجَنِّبُ الْأُمَّةَ مِنَ الْوُقُوعِ وَالْإِيقَاعِ فِي الْأَضْرَارِ وَالْمَهَالِكِ مِنْ جَرَّاءِ الِاسْتِنَادِ إِلَى أَدِلَّةٍ مَوْهُومَةٍ."[٧٢]

- قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ (الكهف: ٧٩). يقول ابن عاشور بما يدلل على جواز ارتكاب أخف الضررين لاجتناب أشدهما، أو ما يمكن تسميته فقه الموازنات: "تَصَرُّفُ

[٧٠] المرجع السابق، ج١، ص٤١.
[٧١] المرجع السابق، ج٣، ص١٥٨.
[٧٢] المرجع السابق، ج١٥، ص١٠١.

الْخَضِرِ فِي أَمْرِ السَّفِينَةِ تَصَرُّفٌ بِرَعْيِ الْمصْلِحَةِ الْخَاصَّةِ عَنْ إِذْنٍ مِنَ اللَّهِ بِالتَّصَرُّفِ فِي مَصَالِحِ الضُّعَفَاءِ إِذْ كَانَ الْخَضِرُ عَالِماً بِحَالِ الملكِ، أَوْ كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَهُ بِوُجُودِهِ حِينَئِذٍ، فَتَصَرَّفُ الْخَضِرِ قَائِمٌ مَقَامَ تَصَرُّفِ الْمَرْءِ فِي مَالِهِ بِإِتْلَافِ بَعْضِهِ لِسَلَامَةِ الْبَاقِي، فَتَصَرُّفُهُ الظَّاهِرُ إِفْسَادٌ وَفِي الْوَاقِعِ إِصْلَاحٌ لِأَنَّهُ مِنِ ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ."[٧٣]

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف: ٢٨). يقول ابن عاشور في معرض ما يُقبَل ويُرفَض في الاستدلال: "دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِنْكَارِ مَا كَانَ مُمَاثِلاً لِهَذَا الِاسْتِدْلَالِ، وَهُوَ كُلُّ دَلِيلٍ تَوَكَّأَ عَلَى اتِّبَاعِ الْآبَاءِ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرِ فَسَادُهَا وَفُحْشُهَا، وَكُلُّ دَلِيلٍ اسْتَنَدَ إِلَى مَا لَا قِبَلَ لِلْمُسْتَدِلِّ بِعِلْمِهِ."[٧٤]

٣. مقصد تقويم الفكر عند علال الفاسي:

يرى علال الفاسي أن وسيلة تحقيق مقاصد القرآن هي تقويم الفكر؛ إذ قال: "والقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق وإصلاح البشرية وعمارة الأرض، وطريقته لذلك هي التربية بالحكمة والتعليم بالإرشاد لمصادر المعرفة، فهو يدعو قبل كل شيء إلى توحيد الله سبحانه والاعتقاد في ألوهيته، ويصلح كل ما فسد من عقائد الدين، وينفي كل تحريف وقع في شرائع الأنبياء، مقيماً على ذلك من الحجج العقلية والبراهين الكونية ما يفتح الفكر والنظر، وما يزيل عن بصيرة الإنسان كل غواية وضلال، ويعلم الإنسان عدم قبول ادعاء ما لم يقم عليه دليل، وتلك أعظم الخطوات في تحرير الإنسان، ورفع مستواه العقلي والاجتماعي."[٧٥]

٤. مقصد تقويم الفكر عند سيد قطب:

اهتم سيد قطب اهتماماً كبيراً بمقصد تقويم الفكر، وبناء منهج التفكير السليم، وقد ظهر ذلك جلياً في معرض تفسيره آيات القرآن الكريم، ومن ذلك:

---

[٧٣] المرجع السابق، ج١٦، ص١٢.

[٧٤] المرجع السابق، ج٨، ص٨٤.

[٧٥] الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، مرجع سابق، ص٨٨.

– قولــه تعــالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ (البقرة: ١٨٩). يقول قطب في بيان أهمية التركيز على الجانب العملي والتطبيقي، ومخاطبة الناس بحسب قدراتهم وإمكانياتهم: "اتجه –جواب السؤال– إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، وحدَّثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم، ولم يُحدِّثهم عن دورة الفلكية للقمر، وكيف تتم. وهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال القمر يبدو هلالاً؟... كذلك لم يُحدِّثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية، أو في توازن حركة الأجرام السماوية. وهي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله الأهلة؟... والسبب في ذلك –حسب رأيه– أن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات، من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية."[٧٦]

– قولــه تعــالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ (الإسراء: ٣٦). يُبيِّن قطب أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على المنهج العلمي القائم على البرهان والتثبت الذي يرفض الاستناد إلى الوهم والخرافة والظن والحدس، قائلاً: "هذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة! فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق. ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبقَ مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبقَ مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبقَ مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم."[٧٧]

– قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ (الأنعام: ١٤٨-١٤٩).

[٧٦] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٨٠.

[٧٧] المرجع السابق، ج٤، ص٢٢٢٧.

يقول قطب في بيان المنهج القرآني في تصحيح الفكر عند الرد على شبه المشركين بأن الله تعالى جبرهم على الشرك، وكيف أنه رد عليهم بأن الأمر –على افتراض صدق ما يدعون– يتنافى مع عدله، ولا سيما في حال تعذيب الأقوام السابقة: "اللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر... إن الله أمرهم بأوامر، ونهاهم عن محظورات... وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً... فأمَّا مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه، فكيف يعلمونه؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨)... إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في وادٍ لا يعلمونه؟"[٧٨]

٥. مقصد تقويم الفكر عند أحمد الريسوني:

عَدَّ الريسوني مقصد تقويم الفكر أحد المقاصد الستة التي يرى أن القرآن الكريم جاء يتغياها، وذكر جملة من مظاهر اهتمام القرآن الكريم بهذا المقصد، منها:

أ. الحكمة ببُعْدها المنهجي ما هي إلا الفهم السديد السوي للأمور، والعمل بمقتضى ذلك؛ فالحكمة هي إتقان العلم والعمل، وتنزيل الأقوال والأحكام والأفعال في مواضعها المناسبة؛ ما يجعلها تعبيراً جامعاً عن المنهج القويم الذي بُعِث الأنبياء كافةً لبثه وتثبيته.[٧٩] وهذا المعنى ذُكِر في آيات كثيرة، منها: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ب. دعوة القرآن الكريم إلى عدم الحكم على شيء إلا بدليل.

ت. دعوة القرآن الكريم إلى استعمال الأفئدة والحواس.

ث. اعتماد القرآن الكريم منهج ضرب الأمثال الذي يُعلِّم الناس الانتقال بفكرهم من الخاص إلى العام، ومن المُعيَّن إلى المُجرَّد، ومن الجزئي إلى الكلي.

---

[٧٨] المرجع السابق، ج٣، ص١٢٢٧.

[٧٩] الريسوني، **مقاصد المقاصد**، مرجع سابق، ص٢١.

ج. تنبيه القرآن الكريم على مواطن الخلل في منهجية التفكير، وهي: التبعية والتقليد، واتباع الخرص والظن، والتسوية بين المختلفات، والتفريق بين المتماثلات.[٨٠]

خاتمة:

بيَّن البحث أن مقاصد القرآن هي الغايات الكلية التي أُنزل القرآن الكريم لأجلها، وأنه يوجد تباين في تحديد تلك المقاصد نتيجة الخلط بين مصطلح "المقاصد" بهذا المعنى والمعنى الآخر، وهو محاور (أو موضوعات) القرآن الكريم. وعند التحقيق نجد أن هذه المقاصد تتمثل في التوحيد والتزكية والعمران، وأن هذه الأسس –التي تعد أشبه بالساق من الشجرة– هي موضع اتفاق في كتابات المعاصرين، وإن كانت بمسميات أخرى.

وقد أكد البحث أهمية مقاصد القرآن في النسق المعرفي والحضاري؛ إذ تمثل مقاصد القرآن مرجعاً دستورياً، ومنطلقاً لتكوين الرؤية الكلية للرسالة في بُعْدها الإنساني الحضاري، ومُوجِّهاً ومُقوِّماً للإطار المعرفي والبحثي، ومشتركاً إنسانياً يُسهِم في التفاعل الحضاري.

وتوصل البحث إلى أن البناء الحضاري والعمران ليس ترفاً فكرياً، أو موضوعاً هامشياً، وإنما هو مقصد أساسي من مقاصد القرآن يدخل في مفهوم الإيمان والعبادة، ويمثل إحدى صور العبادة المجتمعية كما جاء عند كثير من المعاصرين. وقد ركَّزت موضوعات القرآن الكريم على إعداد الإنسان، وجعلت وظيفته القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها.

ولا شك في أن إعمال المقاصد القرآنية في الواقع المعيش كفيل بأن يُحقِّق نهوضاً حضارياً؛ ما يُحتِّم على النخب العلمية والفكرية إعادة الصياغة والتفريع لمقاصد القرآن في

---

[٨٠] المرجع السابق، ص٢١–٢٥. وقد أشار إلى بعض هذه المظاهر يوسف القرضاوي في كتابه "العقل والعلم في القرآن"، ضمن عنوان: "تكوين العقلية العلمية في القرآن"؛ إذ ذكر من مقومات هذه العقلية: ١– رفض الظن في موقع اليقين. ٢– عدم اتباع الأهواء والعواطف. ٣– رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف. ٤– إنكار التبعية للسادة والكبراء. ٥– لا تقبل دعوى بغير برهان. انظر:
– القرضاوي، يوسف. **العقل والعلم في القرآن**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٤٩–٢٦٥.

ظل رؤية العالم، لتجد تلك المقاصد مكانها في التنمية البشرية، وتمنح معالم ديننا الحنيف بُعْداً حضارياً، وتُسهِم في البناء الإنساني.

وأمَّا تقويم الفكر فيمثل إحدى صور مقاصد القرآن التي تتعلق بالجانب العمراني، والتي تتمثل في بناء الفكر الإنساني ليكون فكراً سليماً قادراً على البناء، بحيث يُعلِّم المنهجية السننية، ويبني المنهجية العلمية، ويعالج مواطن الخلل في منهجية التفكير. وقد تجلَّى هذا المقصد في كثير من كتابات المعاصرين؛ سواء في تأصيل ذلك ضمن تفرعات المقاصد، أو في معرض تفسير الآيات القرآنية التي بنت المنهجية العلمية، أو بيَّنت مواطن الخلل فيها.

ختاماً، فإن إعادة صياغة مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة في ظل رؤية العالم تمثل تحدياً من تحديات المرحلة الحالية التي تخرج هذه المقاصد من الإطار التقليدي إلى التفاعل الحضاري؛ ما يجعلها جديرة بالاهتمام من الدراسات المستقبلية، وكذا الحال بالنسبة إلى عملية الإسهام في تنمية مفهوم "التنمية البشرية"، وجعله معياراً للتقدم الحضاري؛ إذ يلزمها المزيد من الاهتمام والدراسة والبناء عليها، إلى جانب المجامع الفقهية والفكرية التي يتعيَّن عليها إعداد رؤية كونية موحدة بناءً على مقاصد القرآن لترسيخ الفكرة الحضارية للإسلام.